# "التعامل مع التراث: ضوابطه وآلياته"

**هاني سمير أمين جزيرة.**

قسم الدعوة والثقافة الإسلامية، كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، القاهرة.

البريد الإلكتروني: drhanysamir2000@yahoo.com

**الملخص:**

كثر اللغط حول قضية التراث في عصرنا الحاضر، وشغلت أذهان المفكرين قديمًا وحديثًا،

ونحن أمام هذا التراث الذي سطره أجدادنا أحد رجلين: إما منافح عن التراث متبنٍ ومقدس لكل ما فيه، وإما ناقم عليه كله، يرفضه رفضا تامًّا، فكانت هذه الدراسة لتلقي الضوء على أهم المعوقات التي حالت دون مراجعة تراثنا، وكذلك لتضع بعض القواعد النظرية للتعامل مع التراث الإسلامي، وقد جاءت خطة هذا البحث على النحو الآتي:

المقدمة، وفيها: أهمية البحث وأسباب اختياره، أهداف البحث، مشكلة البحث وتساؤلاته

المبحث الأول: تعريف التراث ومفهومه، وتحته مطالب عدة:

المطلب الأول: مفهوم التراث في اللغة، والمطلب الثاني: مفهوم التراث في الاصطلاح، والمطلب الثالث: التراث في المفهوم القرآني، والمطلب الرابع: التراث في المفهوم النبوي، والمطلب الخامس: الحقل الدلالي لمصطلح «تراث» في الفكر العربي والإسلامي، والمطلب السادس: مصطلح التراث في الحضارة الغربية.

ثم المبحث الثاني: التراث والوحي. ويشتمل على المطالب الآتية:

المطلب الأول: التيار القائل بضرورة فصل التراث عن الوحي، والمطلب الثاني: التيار القائل بعدم فصل التراث عن الوحي، والمطلب الثالث: الفرق بين الفكر الإسلامي (بوصفه تراثًا) والوحي الإلهي.

ثم المبحث الثالث: العلاقة الجدلية بين التراث وغيره من المفاهيم التداخلية، ويشتمل على المطالب الآتية: المطلب الأول: أهمية دراسة قضية التراث الإسلامي، والمطلب الثاني: العلاقة بين التراث والمقدس (الدين)، والمطلب الثالث: العلاقة بين التراث والتجديد، والمطلب الرابع: العلاقة بين التراث والحضارة، والمطلب الخامس: حدود الاستلهام والتجاوز في التراث الإسلامي.

ثم المبحث الرابع: خصائص التراث الإسلامي.

ثم المبحث الخامس: مناهج المتعاملين مع التراث الإسلام

ثم المبحث السادس: معيقات مراجعة التراث وتجديده.

ثم المبحث السابع: ضوابط التعامل مع التراث.

ثم جاء المبحث الثامن: شهادات بعض المفكرين المتغربين للتراث الإسلامي.

الخاتمة، وفيها أهم ما توصل إليه البحث من نتائج ومقترحات، وأهم المصادر والمراجع، وفهرست الموضوعات.

**النتائج**: كان من أهم نتائج البحث

١- التراث الإسلامي ليس مقدسًا ولا مدنسًا، بل هو منتج بشري قابل

للنقد المنهجي.

٢- لا يمكن لأي شخص لم تتوفر له ضوابط التعامل مع التراث، أن يتهجم على التراث ويصفه ويصمه بما ليس فيه، فليس كل أحد صالحًا للتعامل مع التراث إلا من أتقن دهاليز العلم وأتقن فنونه ودروبه.

## التوصيات:

أوصي الباحثين وطلبة العلم باستخراج مناهج ضابطة للتعامل مع التراث؛ بحيث تكون هذه المناهج خدمة للعلم أولًا، ورادعًا لكل من تسول له نفسه التجرؤ على التراث دون علم ثانيًا.

**الكلمات المفتاحية**: تراث، التعامل، ضوابط، آليات.

# "Dealing with heritage: its controls and mechanisms"

**Hani Samir Amin island.**

Department of Islamic Da'wah and culture, Faculty of osoul al-Din, al-Azhar University, Cairo.

E-mail address: drhanysamir2000@yahoo.com

**Abstract:**

Much ado about the issue of heritage in our time, and occupied the minds of old and modern thinkers،

This study was to shed light on the most important obstacles that prevented the revision of our heritage, as well as to set some theoretical rules for dealing with the Islamic heritage, and the plan of this research came as follows ::

Introduction: the importance of research and the reasons for choosing it, the objectives of the research, the problem of research and its questions

The first topic: the definition of heritage and its concept, and under it several demands:

The first requirement: the concept of heritage in language, the second requirement: the concept of heritage in terminology, the third requirement: heritage in the Quranic concept, the fourth requirement: heritage in the prophetic concept, the fifth requirement: the semantic field of the term "heritage" in Arab and Islamic thought, and the sixth requirement: the term heritage in Western civilization.

Then the second topic: heritage and revelation. It includes the following demands:

The first requirement: the current that heritage should be separated from Revelation, the second requirement: the current that heritage should not be separated from Revelation, and the third requirement: the difference between Islamic thought (as heritage) and divine revelation.

It includes the following demands: the first requirement: the importance of studying the issue of Islamic heritage, the second requirement: the relationship between heritage and the sacred (religion), the third requirement: the relationship between heritage and renewal, the fourth requirement: the relationship between heritage and civilization, and the fifth requirement: the limits of inspiration and transcendence in Islamic heritage.

Then the fourth topic: characteristics of Islamic heritage.

Then the fifth topic: methods of dealing with the heritage of Islam

Then the sixth topic: obstacles to heritage review and renewal.

Then the seventh topic: controls dealing with heritage.

Then came the eighth topic: the testimonies of some Western thinkers of Islamic heritage.

Conclusion, in which the most important findings of the research findings and proposals, the most important sources and references, and indexed topics.

Results: one of the most important research results

-١Islamic heritage is neither sacred nor profane, but is a human product subject to systematic criticism.

-٢no one who does not have the controls to deal with the heritage can attack the heritage and describe and stigmatize what is not in it, not everyone is fit to deal with the heritage except those who have mastered the corridors of Science and mastered the arts and paths.

Recommendations:

I recommend researchers and students of science to extract controlled approaches to deal with heritage; so that these approaches serve science first, and deter anyone who begs himself to dare to heritage without knowledge second.

**Keywords**: legacy, handling, controls, mechanisms.

بسم الله الرحمن الرحيم

## المقدمة

الحمد لله رب العالمين أحمده سبحانه حمد الراضي بحكمه المسلم لأمره المذعن لقضائه وحكمه، وأساله سبحانه أن يجعلني من عباده المخلصين، وأصلي وأسلم على خاتم رسله وأنبيائه سيدنا محمد ﷺ وأصحابه الغر الميامين وسلم تسليمًا كثيرًا... أما بعد:

كثر اللغط حول قضية التراث في عصرنا الحاضر، وشغلت أذهان المفكرين قديمًا وحديثًا؛ قديمًا: تأليفًا وكتابةً، وحديثًا: عرضًا ونقدًا ودفاعًا.

أبدع أجدادنا هذا التراث، ولم يكن في مخيلتهم قط أنهم يبدعون تراثًا لغيرهم، وهذا هو السر وراء غياب مصطلح "**التراث**" في كتاباتهم، بل كانوا ينجزون لأنفهسم حضارة نتغنى نحن الآن بأمجادها. لقد أبدع هؤلاء الأسلاف لأنفسهم وبنوا لحضارتهم، وعلينا نحن كذلك أن ننجز لحضارتنا ونبدع لحاضرنا كما أبدعوا.

ونحن أمام هذا التراث الذي سطّره أجدادنا أحد رجلين: إما منافح عن التراث متبنٍ ومقدس لكل ما فيه، وإما ناقم عليه كله، يرفضه جملة وتفصيلًا، ويعمل على القطيعة معه.

أما الذي ينافح عن التراث، ينظر إليه نظرة إعجاب وتقديس، فإنه ينظر إلى الماضي، إلى النهضة التي حققها هذا التراث في ماضيه المشرق التليد، وكيف أصبح المسلمون سادة العالم، وبنوا مجدهم وحضارتهم في زمن يسير، وهذا يجعله ينصهر في الماضي بروحه، ويذوب فيه عشقًا، ويعيش فيه بوجدانه، ويريد أن ينقل هذا الماضي إلى

الحاضر والمستقبل بكل تبعاته، بلا إبداع ولا تجديد، بل هو اجترار للماضي دون تكييف له، ودون مراعاة لحدود الزمان والمكان ومستجدات العصر.

وأما الذي يرفض التراث جملة وتفصيلًا، فيرى فيه أسباب التردي والانحطاط والتخلف، وحتى تحقق الأمة نهضتها وتُقال من عثرتها، فلا بد من تجاوز هذا التراث، وعدم الالتفات إليه بأي حال من الأحوال، وانتهاج سير الأوروبيين أصحاب النهضة العلمية الحديثة.

وفي الحقيقة، التراث لا هذا ولا ذلك، لا هو خير كله، ولا هو شر كله، وينسى هؤلاء أن اليابان تقدمت وتحضرت دون أن تتنكر لتراثها ولا لغتها التي تُعَدُّ من أصعب اللغات؛ فالتراث لا يقف حجر عثرة أمام نهضتنا وتقدمنا؛ فهو محايد في ذاته ويرقد في صمت، إما في الكتب أو في عقلنا الجمعي، ونحن من نخرجه من صمته عندما نتحدث به، وقد يعيشه الناس، أو يعيشون بعضًا من رموزه ومعطياته، كما يعيشون حاضرهم ومعطياته دون أن يشعروا بالتناقض.

وأمام هذين الموقفين من التراث، لا بد أن نختط لأنفسنا خطًّا وسطًا بين الإفراط والتفريط؛ إذ إننا بحاجة ماسة إلى ضوابط وآليات للتعامل مع هذا الإرث؛ ولذلك كان هذا البحث.

والله من وراء القصد.

## أهمية البحث وأسباب اختياره

تكمن أهمية التراث الإسلامي في أن هذا التراث قام من أجل خدمة الوحي بشقيه (قرآنًا وسنةً)؛ حيث قام بالشرح والتحليل والبيان لهذا الوحي العظيم؛ ولهذا كانت أهمية هذا البحث، ومن **أسباب اختياره ما يأتي**:

١. الهجمة الشرسة على التراث الإسلامي التي زادت حدتها ووتيرتها في الآونة الأخيرة، والأمر المحزن أنها كانت من أناس ينتسبون إلى الإسلام.

٢. بيان أن مصطلح «النقد» هو مصطلح تراثي بالأساس، وأن النقد هو سمة الحضارة الإسلامية، وبالنقد البنَّاء يمكن استكمال مسيرة التقدم التي رافقت التراث وقامت على أساسه، ثم أُجهضت.

٣. بيان حقيقة هذا التراث وخصائصه، وأن ليس كله خير ، وليس كله شر.

٤. بيان أن الانسحاب الحضاري لم يكن التراث سببًا فيه؛ فليس للتراث الإسلامي سلطان في ذاته حتى وإن كان مكتنزًا بمضمون التقديس.

## أهداف البحث:

**يمكننا تلخيص الأهداف العامة للبحث في نقاط عدة، هي**:

١- كشف اللبس والغموض حول مصطلح التراث الإسلامي.

٢- رد الهجمة الشرسة على التراث؛ وذلك بإعادة تشكيل العقل المسلم، وإيقاظ الوعي بقضية التراث.

٣- وضع ضوابط منهجية واضحة للتعامل مع التراث الإسلامي.

## مشكلة البحث وتساؤلاته:

في الحقيقة أن وراء كل بحث يكتب أو فكرة تطرح أسئلة يريد البحث الإجابة عنها وبيانها. من هذه الأسئلة التي كانت تخامر عقل الباحث، وتتردد في خاطره، وتجول بفكره خلال كتابة هذا البحث ما يأتي:

١- الجدل الدائر بين بعض المثقفين والمتعالمين في قضية التراث والتحامل على التراث من جهة وتقديس التراث من جهة أخرى.

٢- هل التراث الإسلامي مقدس؟ وإذا كان كذلك فما نسبة التقديس فيه؟

٣- هل التراث معصوم أم إنه نتاج بشري قابل للصواب والخطإ؟

٤- ما حدود الاستلهام والتجاوز في تراثنا؟

٥- هل من الممكن وضع ضوابط منهجية لقراءة وفهم التراث حتى لا يمكن لأي أحد أن يتجنى على هذا التراث بدافع من الهواجس الخيالية التي هي وليدة عقله فقط، أو على الجانب الآخر نجد من يرفعه إلى حد التقديس؟

٦- ما المعوقات التي حالت دون مراجعة تراثنا الإسلامي، وبناء نهضة علمية شاملة عليه؟

٧- هل ما وصلت إليه الأمة من انسحاق وانسحاب حضاريين من ركب التقدم كان سببه التراث الإسلامي أم شيئًا آخر؟

## الدراسات السابقة

لا يخفى على الدارسين والباحثين في حقل التراث الإسلامي كثرة

الكتابات التي دارت حو ل التراث عرضا ونقدًا وشرحًا وتحليلًا، من هذه الكتابات:

- «قراءة التراث الإسلامي بين ضوابط الفهم وشطحات الوهم» مؤتمر كلية أصول الدين بالقاهرة الذي عُقد بقاعة الأزهر للمؤتمرات في السابع/ الثامن من مارس ٢٠١٨م.
- «نقد التراث» د: عبد الإله بلقزيز، الناشر: مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط: الأولى: نوفمبر ٢٠١٤م.
- «التراث والمعاصرة» د: أكرم ضياء العامري، سلسلة كتاب الأمة (١٠)، ط: الأولى ١٤٠٥هـ.
- «التراث والمستقبل» أ. د: محمد عمارة، ط: دار السلام- القاهرة، ط: الأولى ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.

إلى غير ذلك من الكتابات التي تناولت التراث الإسلامي، لكني لم أجد فيما وقفت عليه ضوابط محددة للتعامل مع التراث الإسلامي، تغلق الباب على الأدعياء والمتعولمين، وفي الوقت ذاته لا تجعله حكرًا على فئة دون فئة، وإنما تجعله لكل مجتهد يضرب فيه بسهم وافر.

هذا؛ ولا أدعي لنفسي فلسفة أو أني أتيت بما لم يستطعه الأوئل، لكني على قدر جهدي اجتهدت أن أصل إلى بعض هذه الضوابط، فهي مبثوثة في كتب أهل العلم متفرقة يحتاج إلى من يجمع شذرها، ويعمل النظر فيها ويتخير المناسب لواقعنا وزماننا.

**خطة البحث**:

**المقدمة، وفيها:**

**أهمية البحث وأسباب اختياره**

**أهداف البحث**

**مشكلة البحث وتساؤلاته**

**المبحث الأول: تعريف التراث ومفهومه، وتحته مطالب عدة**

**المطلب الأول: مفهوم التراث في اللغة.**

**المطلب الثاني: مفهوم التراث في الاصطلاح.**

**المطلب الثالث: التراث في المفهوم القرآني.**

**المطلب الرابع: التراث في المفهوم النبوي.**

**المطلب الخامس: الحقل الدلالي لمصطلح «تراث» في الفكر العربي والإسلامي.**

**المطلب السادس: مصطلح التراث في الحضارة الغربية.**

**المبحث الثاني: التراث والوحي.**

**ويشتمل على المطالب الآتية:**

**المطلب الأول: التيار القائل بضرورة فصل التراث عن الوحي.**

**المطلب الثاني: التيار القائل بعدم فصل التراث عن الوحي.**

**المطلب الثالث: الفرق بين الفكر الإسلامي (بوصفه تراثًا) والوحي الإلهي.**

**المبحث الثالث: العلاقة الجدلية بين التراث وغيره من المفاهيم التداخلية**

**ويشتمل على المطالب الآتية:**

المطلب الأول: أهمية دراسة قضية التراث الإسلامي.

المطلب الثاني: العلاقة بين التراث والمقدس (الدين).

المطلب الثالث: العلاقة بين التراث والتجديد.

المطلب الرابع: العلاقة بين التراث والحضارة.

المطلب الخامس: حدود الاستلهام والتجاوز في التراث الإسلامي.

**المبحث الرابع: خصائص التراث الإسلامي.**

**المبحث الخامس: مناهج المتعاملين مع التراث الإسلام.**

**المبحث السادس: معيقات مراجعة التراث وتجديده.**

المبحث السابع: ضوابط التعامل مع التراث.

المبحث الثامن: شهادات بعض المفكرين المتغربين للتراث الإسلامي.

**الخاتمة.**

**الفهارس.**

## المبحث الأول: تعريف التراث ومفهومه، وتحته مطالب عدة:

**المطلب الأول: مفهوم التراث في اللغة.**

**المطلب الثاني: مفهوم التراث في الاصطلاح.**

**المطلب الثالث: التراث في المفهوم القرآني.**

**المطلب الرابع: التراث في المفهوم النبوي.**

**المطلب الخامس: الحقل الدلالي لمصطلح تراث في الفكر العربي والإسلامي.**

**المطلب السادس: مصطلح التراث في الحضارة الغربية.**

## مدخل: في جدل المفهوم:

أثار مفهوم التراث جدلًا واسعًا في بنائه المعرفي خصوصًا عندما يطلق على معارف إسلامية أنتجها العقل الإسلامي في تفاعله مع معطيات الواقع محاولة منه لفهم النص الديني، ولتنزيله على معطيات الواقع، وفق رؤية معرفية تستجيب لحاجاته التاريخية. ومنشأ هذا الجدال أن الخلف في تعاملهم مع الزخم الفكري الذي أنتجه السلف أضفوا عليه طابعًا من القداسة، حتى أصبح هذا التراث في فترة من فترات تاريخ الفكر الإسلامي يتوارث كما يتوارث النص الديني، وصار للأول (التراث) قدسية في قلوب الخلف كما للثاني (الوحي)، أوجدت هذه القدسية ما يسمى بـ«ثنائية الوحي والتراث» أو «النص والتراث»، وصار هناك إشكال، ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى تدقيق مفاهيمي وتحديد إطلاقات مفردة «تراث»، وبالنظر كذلك لما تشكله المفاهيم من قضية مركزية في عملية الصراع الحضاري خاصة بعد نجاح أوروبا في بناء ذاتها وتأسيس تمركزها الذاتي، فأصبحوا يركزون كل شيء حولهم، ويعتبرون مفاهيمهم ومعاييرهم هي الصحيحة، بل الحقيقة الثابتة التي تفرض نفسها، ورغبة في استمرار سيطرتهم وهيمنتهم عملوا على تصدير هذه المفاهيم ونشرها وترسيخها بشتى الوسائل(١).

وأمام هذا التحدى يجد الدارس للفكر الإسلامي نفسه مضطرًّا للخوض في عملية إعادة بناء المفاهيم وتأصيلها، عبر إيجاد دلالة مفاهيمية لهذه

(١) ينظر: بحث محكم: «أزمة المنهج في فهم التراث» إعداد: الحسن حما، (ص: ٧)، الناشر: مؤسسة دراسات وأبحاث مؤمنون بلا حدود- الرباط- المغرب، دون، بتصرف

**المفاهيم من خلال القرآن والسنة، والإسهام في إبداع وإنتاج مفاهيم تنتمي إلى الحقل الدلالي لتاريخ الحضارة الإسلامية. إننا نحتاج إلى ما يسميه الشاهد البوشيخي بـ«إعادة نحت المصطلحات التي تشكل عنوان المفهوم، وذلك لأن المفهوم أساس الرؤية»**[1].

## تحديد مفهوم التراث:

**لكي يتضح مفهوم التراث والمراد من هذا المصطلح، لا بد من بحث جذر الكلمة وتتبع الحقل الدلالي والمفاهيمي لهذا المصطلح، وذلك على النحو التالي:**

(١) «نحو تصور حضاري للمسألة المصطلحية» تأليف: الشاهد البوشيخي، (ص: ١٧)، الناشر: مطبعة انفوبرانت، فاس، ط: الأولى ٢٠٠٢م.

**المطلب الأول: مفهوم التراث في اللغة:**

**إن من يتأمل الدلالة المعجمية لكلمة «التراث»، فسيجدها بطبيعة الحال مشتقة من فعل «ورث»، ومرتبطة دلاليًّا بالإرث، والميراث، والتركة، والحسب، والتُّراثُ هو: «مَا يَخْلُفُهُ الرَّجُلُ لِوَرَثَتِهِ، والتاءُ فِيهِ بَدَلٌ مِنَ الْوَاوِ»(١).**

**وفي هذا الإطار، يقول ابن منظور: «الْوَارِثُ: صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ الْبَاقِي الدَّائِمُ الَّذِي يَرِثُ الخلائقَ، وَيَبْقَى بَعْدَ فِنَائِهِمْ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، يَرِثُ الأَرض ومَن عَلَيْهَا، وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ، أَي يَبْقَى بَعْدَ فَنَاءِ الْكُلِّ، ويَفْنى مَن سِوَاهُ فَيَرْجِعُ مَا كَانَ مِلْكَ العِباد إِليه وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»(٢).**

**وَيُقَالُ: «وَرِثْتُ فُلَانًا مَالًا أَرِثُه وِرْثا وَوَرْثا إِذا ماتَ مُوَرِّثُكَ، فَصَارَ مِيرَاثُهُ لَكَ»(٣).**

**وقال ابْنُ الأَعرابي: «الوِرْثُ والوَرْثُ والإِرْثُ والوِرَاثُ والإِرَاثُ والتُّراثُ وَاحِدٌ(٤)، قال الْجَوْهَرِيُّ: المِيراثُ أَصله (مِوْراثٌ)، انْقَلَبَتِ الْوَاوُ يَاءً لِكَسْرَةِ مَا**

---

(١) «لسان العرب» تأليف: جمال الدين ابن منظور، (٢/ ٢٠١)، : دار صادر– بيروت، ط: الثالثة– ١٤١٤ هـ، مادة «ورث».

(٢) «لسان العرب»، (٢/ ١٩٩)، مادة «ورث».

(٣) «االسابق» نفسه.

(٤) «تهذيب اللغة» تأليف: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبي منصور، (١٥/ ٨٥)، تحقيق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي– بيروت، ط: الأولى، ٢٠٠١م.مادة: (ورث).

قَبْلَهَا، والتُّراثُ أَصل التَّاءَ فِيهِ وَاوٌ، والوِرْثُ والإِرْثُ والتُّرَاثُ والمِيراثُ: مَا وُرِثَ؛ وَقِيلَ: **الوِرْث والميراثُ فِي الْمَالِ، والإِرْثُ فِي الحسَب**[1]؛ لأن الحسب هو مفاخر الآباء وشرف الفِعال التى يرثها الأبناء ويتغنون بها»[2]، وقد اعتبر الزمخشري هذا الاستعمال الأخير لكلمة «الإرث» من قبيل المجاز[3].

## المطلب الثاني: مفهوم التراث في الاصطلاح:

في حقيقة الأمر إن لفظ «التراث» قد اكتسى في الخطاب العربي الحديث والمعاصر معنى مختلفًا مباينًا، إن لم يكن مناقضًا لمعنى مرادفه «الميراث» في الاصطلاح القديم؛ «ذلك أنه بينما يفيد لفظ «الميراث» التركة التي تُوزَّع على الورثة، أو نصيب كل منهم فيها، أصبح لفظ «التراث» يشير اليوم إلى ما هو مشترك بين العرب: أي التركة الفكرية والروحية التي تجمع بينهم لتجعل منهم جميعًا خلفًا لسلف، وهكذا فإذا كان «الإرث» أو «الميراث» هو عنوان اختفاء الأب وحلول الابن محله، فإن التراث قد أصبح بالنسبة للوعي العربي المعاصر عنوانًا على حضور الأب في الابن، حضور السلف في الخلف، حضور الماضي في الحاضر.. ذلك هو المضمون الحي في النفوس، الحاضر في الوعي، الذي يعطي

---

(1) «لسان العرب» (٢/ ٢٠٠)، «مختار الصحاح»، (ص:١٦)، مادة: (ورث).

(2) ينظر: «أساس البلاغة» للزمخشري، (١/ ١٨٨)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط: الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨م.

(3) ينظر: «أساس البلاغة» للزمخشري، (١/ ١٨٨)، وأيضًا:كتاب الأمة: «التراث والمعاصرة» د: أكرم ضياء العامري، (ص: ٢٥)، (١٠)، ط: الأولى ١٤٠٥هـ.

**للثقافة العربية الإسلامية أصالتها، عندما ينظر إليها بوصفها مقومًا من مقومات الذات العربية، وعنصرًا أساسيًّا ورئيسًا من عناصر وحدتها، ومن هنا ينظر إلى «التراث» لا على أنه بقايا من الماضي، بل على أنه تمام هذه الثقافة وكليتها، إنه العقيدة والشريعة، واللغة والأدب، والعقل والذهنية، والحنين والتطلعات»(١).**

**ويمكننا تعريف التراث في الاصطلاح على النحو التالي:**

**لفظ التراث إذا أرجعناه إلى مادته اللغوية، وهي: «و.ر.ث» وإلى مصادره واشتقاقاته كما وردت في معاجم اللغة من الإرث والوارث والميراث، وما يتفرع عنها من كلمات: «ورث، يرث، توريث، الوارث، الورثة...إلخ»، فسنجد أن جميعها يطلق على عملية الانتقال، «ومن حيث الأصل فإنها تطلق على الجانب المادي في انتقال المال والأملاك من الميت إلى الحي، وهم الورثة الشرعيون حسب أحكام التشريع الإسلامي.**

**كما أصبح يطلق على الجانب المعنوي في انتقال الحسب والشرف؛ لذلك صَحَّ أن نقول إن التراث: هو ما له خاصية الانتقال؛ بحيث يشمل انتقال المعارف والعلوم والثقافات، ليس الانتقال الطبيعي الساكن أو الجامد بل الانتقال الذي له دلالات الفعل والحضور والتأثير»(٢).**

---

(١) «إشكالية التراث في الفكر العربي المعاصر» د: أحمد محمد سالم، (ص: ٣٥)، ط: رؤية للنشر والتوزيع، ط: الأولى: ٢٠١٠م. بتصرف.

(٢)«جداليات الفكر الإسلامي المعاصر» تأليف: إبراهيم العبادي، (ص: ٢٥٠)، الناشر: دار الهادي– بيروت، ط: الأولى ١٤٢١هـ ٢٠٠١م. بتصرف.

**فالتراث في دلالته واستعمالاته الاشتقاقية، هو: «كل ما له خاصية وقابلية الانتقال من الماضي إلى الحاضر، إما لاعتبارات مرتبطة بالحاضر وحاجاته ومقتضياته، وإما لخصوصيات ذاتية وجوهرية يتصف بها التراث تجعل منه تراثًا حيًّا وفاعلًا وعقلانيًّا»[١].**

**وكذلك من التعريفات السائدة للتراث:**

**إنه: «ما ورثناه عن آبائنا من عقيدة وقيم وآداب وفنون وصناعات وسائر المنجزات الأخرى المعنوية والمادية؛ ومن ثم فلن يقتصر التراث على المنجزات الثقافية والحضارية والمادية، بل إنه يشتمل على الوحي الإلهي (القرآن والسنة) الذي ورثناه عن أسلافنا»[٢].**

**أو هو: «ما خَلَّفَته أمة من الأمم منذ بداية وجودها وصراعات حياتها في مجالات عدة في سبيل التطور والتقدم في سلم المدنية»[٣].**

**أو هو: «ما خَلَّفه الأجداد للأحفاد على صعيد الآداب والمعارف والفنون والعلوم، وهو بمثابة الذاكرة الثقافية والحضارية والروحية والدينية التي تبقى للأبناء والأحفاد من أجدادهم وآبائهم»[٤].**

---

(١) «من التراث إلى الاجتهاد»، تأليف د: زكي الميلاد، (ص:٢٤٧)، ط: المركز الثقافي العربي، بيروت– لبنان، ط: الأولى ٢٠٠٤م.

(٢) «التراث والمعاصرة» د: أكرم العامري، (ص: ٢٧).

(٣) «تجديد الفكر الإسلامي» د: محسن عبد الحميد، (ص:٢٦)، ط: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط: الأولى ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

(٤) «المرجع السابق» نفسه.

وعليه، فيمكن القول إن التراث هو: «الإنتاج الحضاري الذي تنحدر منه خصائص أمة من الأمم المتفاعلة مع البيئة التي نشأت فيها بكل ما تحتوي عليها من تجارب وأحداث صبغتها بصبغة خاصة، وأسبغت عليها ملامحها الثقافية ومميزاتها الحضارية التي مَيَّزَتْها عن الأمم الأخرى التي لها بدورها أنماط حياتها وأعرافها وتقاليدها»[1].

من كل ما سبق، يظهر للباحث أنه قد تعددت تعريفات التراث تعددًا يوحي بشيء من الاختلاف، مرده إلى ما تفرضه الخلفية الثقافية أو الأيدلوجية التي يتبناها صاحب التعريف؛ ومن ثَمَّ تنعكس على رؤيته للأشياء وتصوره لطبيعتها، ومنهجية التعامل معها، كذلك لا يمكن أن نغفل الزاوية التي ينظر منها الباحث إلى التراث.

## المطلب الثالث: التراث في المفهوم القرآني:

وردت لفظة "**التراث**" في القرآن الكريم مرة واحدة بنصه في قوله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[2]، وقد فسر الزمخشري عبارة ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ بالجمع بين الحلال والحرام، وهذا هو سر معنى اللَّم، وبالتالي فمعنى ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي: إنهم

(1) «تجديد الفكر الإسلامي» د: محسن عبد الحميد، (ص:٢٦).

(2) سورة الفجر الآية: (١٩، ٢٠).

يجمعون في أكلهم بين نصيبهم من الميراث ونصيب غيرهم[1]؛ فـ«التراث» هنا هو المال الذي تركه الميت وراءه.

أما كلمة «ميراث»، فقد وردت في القرآن مرتين في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[2] يعني: أنه يرث كل شيء فيهما لا يبقى منه باقٍ لأحد من مال أو غيره[3].

مما سبق، يتبين أن التراث هو: ما يخلفه الإنسان بعد موته لوارثه؛ فهو والميراث- إذن- بمعنى واحد.

**أما بالنسبة لمادة (ورث)، فقد وردت في آيات عدة في القرآن الكريم بمعان متعددة، من هذه المعاني:**

**الأول**: «جاء بمعنى **المال والممتلكات الموروثة**، بصيغة الفعل والاسم، منها قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ ..... وَعَلَى الْوَارِثِ

---

(1) ينظر: «الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل» تأليف: أبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري، (٧٥١/٤)، الناشر: دار الكتاب العربي- بيروت، ط: الثالثة - ١٤٠٧ هـ.

(2) قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

(3) ينظر: «الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل»، (٤٧٤/٤).

**مِثْلُ ذَلِكَ﴾[1]، أي: وعلى من يرث اليتيم، إذا مات الأب مثل ما على الأب من النفقة والكسوة لو كان حيًّا فلا يضار الوارث»[2].**

**«وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ﴾[3]، هذا النص يفيد أمرين: أحدهما: أن الميراث للأبوين إن لم يكن أولاد، وثانيهما: أن للأم الثلث، وما دام الميراث منحصرًا في الأبوين؛ فإن الثلث للأم والباقي للأب»[4].**

**«وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾[5]، يعني: لا يحل لكم أن ترثوا نكاحَ نساء أقاربكم وآبائكم كَرْهًا؛ حيث كانت إحداهن في الجاهلية إذا مات زوجها، كان ابنه أو قريبُه أولى بها من غيره، ومنها بنفسها، إن شاء نكحها، وإن شاء عضلها فمنعها من غيره، ولم يزوّجها حتى تموت»[6].**

---

(1) سورة البقرة الآية: (٢٣٣).

(2) «تفسير مقاتل بن سليمان» تأليف: أبي الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي، (ص: ١٩٨)، تحقيق، د: عبد الله محمود شحاته، الناشر: دار إحياء التراث– بيروت، ط: الأولى – ١٤٢٣هـ. بتصرف.

(3) سورة النساء الآية: (١١).

(4) «زهرة التفاسير» تأليف: الشيخ محمد أبي زهرة، (٣/ ١٦٠٣)، الناشر: دار الفكر العربي، دون.

(5) سورة النساء الآية: (١٩).

(6) «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» الموسوم بتفسير الطبري، (١٠/ ١٠٤)، تحقيق، د: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط: الأولى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١م.

**الثاني**: جاء اللفظ بمعنى **ميراث النبوة والملك والكتاب والوحي في قوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾**[1]؛ **أَي يَبْقَى بَعْدِي فَيَصِيرُ لَهُ مِيرَاثِي.**

**قال القرطبي: للعلماء فيه ثلاثة أقوال، قيل: هي وراثة نبوة، وقيل: هي وراثة الحكمة والعلم، وقيل: هي وراثة مال، فأما قولهم وراثة نبوة فمحال؛ لأن النبوة لا تورث، ورأي القرطبي أن الوراثة هنا: وراثة العلم والحكمة**[2].

**«قَالَ ابْنُ سِيدَهْ: إِنما أَراد يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ النُّبُوَّةَ، وَلَا يَجُوزُ أَن يَكُونَ خَافَ أَن يَرِثَهُ أَقرِباؤُه المالَ»**[3]**، لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ»** [4].

**والأرجح أن المراد أن يرثه في العلم والحكمة كما اختار القرطبي لقوة دلالته؛ حيث إن النبوة لا تورث، وإنما هي محض اصطفاء من الله، قال**

---

(1) سورة مريم الآية: (٦).

(2) ينظر: «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»، (١١/ ٨١).

(3) «المحكم والمحيط الأعظم» تأليف: أبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، (١٠/ ٢١٠)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت، ط: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠م.

(4) أخرجه الإمام البخاري في «صحيحه» كتاب: «المغازي» بَابُ: «غَزْوَةِ خَيْبَرَ»، (١٣٩/٥) برقم: (٣٠٩٢)، ومسلم في «صحيحه» كِتَابُ: «الْجِهَادِ وَالسِّيَرِ» بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ»، (٣/ ١٣٧٩) برقم: (١٧٥٨). كلاهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[1].

ومنها أيضًا بمعنى **ميراث النبوة والملك** كذلك في قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾[2].

قال الشيخ محمد أبو زهرة: «والمراد من (**الإرث**) هنا **الملك والنبوة**، ثم قال: ذكر الله تعالى وراثة سليمان لأبيه في ملكه؛ فقد ورث هذا السلطان، ولم يرث الرعية؛ فالرعية لَا تورث ولا يمكن أن تورث، وهذا خطأ بعض الذين تولوا الملك بالوراثة، فحسبوا أن الرعية شيء يورث، إنما الذي يورث هو الحكم، ولا يكون إلا بوراثة يقرها الشرع، كوراثة سليمان لداوود -عليهما السلام-، وقد أباحها الحكم الرباني ليجتمع شمل بني إسرائيل أمام من ظلموهم، وأرهقوهم من أمرهم عسرًا»[3].

وقال الشيخ الشعراوي رحمه الله: «إنها ورثة في **النبوة والملك**؛ فالمسألة بعيدة كل البعد عن الميراث المادي»[4].

وورد أيضًا بمعنى **وراثة الكتاب والوحي** للأنبياء والرسل الذين اصطفاهم الله لهذا الغرض في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ

---

(1) سورة الحج الآية: (٧٥).

(2) سورة النمل الآية: (١٦).

(3) «زهرة التفاسير»، (١٠/ ٥٤٤٣).

(4) «تفسير الشيخ الشعراوي» الشيخ: محمد متولي الشعراوي، (١٥/ ٩٠٢٥)، الناشر: مطابع أخبار اليوم ١٩٩٧م، دون.

**اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا**﴾[1]، والكتاب هنا؛ هو القرآن الكريم، والذين أورثهم الله هذا الكتاب هم المؤمنون به فى كل زمن، ومن كل أمة، فهم الوارثون لهذا الكتاب، المنتفعون بما فيه من خير انتفاع الوارث بما يرث، وفي هذا إشارة أخرى إلى أن هذا الكتاب هو ميراث المسلمين على مرّ الأزمان[2].

وقد يرث كتاب الوحي جيلُ لا خير فيه يأتي بعد جيل سابق كان فيه الصالح والطالح[3]، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿**فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ**﴾[4].

**الثالث**: جاء اللفظ بمعنى **وراثة أمة أرض الدنيا من أمة قبلها** كما في قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ**﴾[5]، ﴿**وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا**﴾[6]؛**أي**: وملككم بعد مهلكهم أرضهم، يعني مزارعهم ومغارسهم وديارهم، يقول: ومساكنهم وأموالهم، يعني سائر الأموال غير الأرض والدور[7].

---

(1) سورة فاطر الآية: (٣٢).

(2) «التفسير القرآني للقرآن» تأليف: عبد الكريم يونس الخطيب، (ص: ٨٨٦)، الناشر: دار الفكر العربي– القاهرة، دون.

(3) «التفسير القرآني للقرآن»، (ص: ٥١١). بتصرف.

(4) سورة الأعراف الآية: (١٦٩).

(5) سورة الأعراف الآية: (١٠٠).

(6) سورة الأحزاب الآية: (٢٧).

(7) ينظر: «تفسير القرطبي»، (٢٠/ ٢٥٠).

**الرابع**: جاء بمعنى **وراثة الجنة في اليوم الآخر**، كما في قَوْله تَعَالَى: ﴿**تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا**﴾[1]، وقوله جل شأنه: ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾[2]، يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين هذه صفتهم في الدنيا، هم الوارثون يوم القيامة منازل أهل النار من الجنة[3].

**الخامس**: جاء بمعنى **زوال كل مالك** لما يملك، حين تموت الخلائق جميعها، ويبقى الله سبحانه وتعالى المالك لكل المملوكات، قال تعالى: ﴿**وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ**﴾[4]، وقريب من هذا المعنى ما ورد في قوله سبحانه: ﴿**وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾[5]، وذلك بأن المال مال الله، وما من بخيل إلا سيذهب ويترك ماله، والمتصرف فِي ذلك كله هو الله؛ فهو يرث السموات والأرض، أي: يستمر ملكه عليهما بعد زوال البشر كلهم المنتفعين ببعض ذلك، وهو يملك ما في ضمنهما تبعًا لهما[6].

والمتتبع لدلالات اشتقاقات مادة «ورث» في هذه النصوص القرآنية الكريمة، يجدها لا تنصرف إلى دلالة واحدة، ولا تركن إلى معنى واحد؛

---

(١) سورة مريم الآية: (٦٣).

(٢) سورة المؤمنون الآية: (١٠-١١).

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي»، (١٧/ ١٥).

(٤) سورة الحجر الآية: (٢٣).

(٥) سورة آل عمران الآية: (١٨٠)، سورة الحديد الآية: (١٠).

(٦) ينظر: «التحرير والتنوير» للطاهر ابن عاشور، (٤/ ١٨٣)، ط: الدار التونسية للنشر- تونس ١٩٨٤م.

**فهي لا تقتصر على ما يخلفه الميت لورثته، لكن تتعدد صورها تعددًا لافتًا للنظر؛ إذ إنها تكون تركة أو ميراث ملك ونبوة، أو وراثة أرض لأمة مستخلفة، أو فضيلة أو علم أو كتاب سماوي... إلى آخر ما ورد في هذه الآيات السابقة.**

## المطلب الرابع: التراث في المفهوم النبوي

**إذا تأملنا الأحاديث النبوية التى ورد فيها لفظ التراث والميراث والإرث والتوريث، نجد أنها كثيرة جدًّا، وأنها وردت تارة بالمعنى الحقيقي، وتارة بالمعنى المجازي، هذه أمثلة على ذلك:**

**عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ؓ، قَالَ: أَكْثَرُ مَا دَعَا بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ فِي الْمَوْقِفِ: اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ كَالَّذِي نَقُولُ وَخَيْرًا مِمَّا نَقُولُ، اللَّهُمَّ لَكَ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي، وَإِلَيْكَ مَآبِي، وَلَكَ رَبِّ تُرَاثِي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ وَوَسْوَسَةِ الصَّدْرِ وَشَتَاتِ الأَمْرِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا يَجِيءُ بِهِ الرِّيحُ[1].**

**(ولك ربي تراثي) كأنه يريد: أنه لا يورث، وأن ما يخلفه صَدقة لله، إرثي ومالي كله لك؛ إذ ليس لأحد معك ملك [2].**

---

(١) أخرجه الإمام الترمذي في «جامعه» باب: «الدعوات»، (٥/ ٤٢١) برقم: (٣٥٢٠)، وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ وَلَيْسَ إِسْنَادُهُ بِالقَوِيِّ.

( ٢ ) «الأذكار» تأليف: أبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، (ص:١٩٩)، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، دون.

**وعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لاَ يَرِثُ المُسْلِمُ الكَافِرَ وَلاَ الكَافِرُ المُسْلِمَ»(١)، والمقصود بالوراثة هنا: وراثة المال والمتاع.**

**وعَنِ الْمِقْدَامِ الشَّامِيِّ ؓ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا وَارِثُ مَنْ لَا وَارِثَ لَهُ، أَعْقِلُ عَنْهُ وَأَرِثُهُ، وَالْخَالُ وَارِثُ مَنْ لَا وَارِثَ لَهُ، يَعْقِلُ عَنْهُ وَيَرِثُهُ»(٢)، ويراد به الميراث من مال ومتاع أيضًا.**

**وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ، وَمَنْ تَرَكَ كَلًّا فَإِلَيْنَا»(٣)، وهو المعنى نفسه في الأحاديث السابقة.**

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في «صحيحه» كِتَابُ: «الفَرَائِضِ» بَاب: «لاَ يَرِثُ المُسْلِمُ الكَافِرَ وَلاَ الكَافِرُ المُسْلِمَ»، (٨/ ١٥٦) برقم: (٦٧٦٤)، ومسلم في «صحيحه» مقدمة كِتَاب: «الْفَرَائِضِ»، (٣/ ١٢٣٣) برقم: (١٦١٤)، كلاهما من حديث أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الإمام الترمذي في «جامعه» كتاب: «الْفَرَائِضِ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، بَاب: «مَا جَاءَ فِي مِيرَاثِ الخَالِ»، (٣/ ٤٩٢) برقم: (٢١٠٣)، وابن ماجه في «سننه» كِتَابُ: «الدِّيَاتِ» بَابٌ: «الدِّيَةِ عَلَى الْعَاقِلَةِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَاقِلَةٌ فَفِي بَيْتِ الْمَالِ»، (٢/ ٨٧٩) برقم: (٢٦٣٤)، وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

(٣) أخرجه الإمام البخاري في «صحيحه» كِتَابُ: «فِي الِاسْتِقْرَاضِ وَأَدَاءِ الدُّيُونِ وَالحَجْرِ وَالتَّفْلِيسِ» بَابُ: «الصَّلاَةِ عَلَى مَنْ تَرَكَ دَيْنًا»، (٣/ ١١٨) برقم: (٢٣٩٨)، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

**وعليه، فإن لفظ التراث هنا يرادف ما يدل على التركة المادية؛ أي ما يتركه الميت لورثته، هذا بالنسبة للمعنى الحقيقي، أما المعنى المجازي، فهو كثير، وإليك بيانه:**

**روى يَزِيدُ بنُ شَيْبَانَ، قَالَ: أَتَانَا ابْنُ مِرْبَعٍ الأَنْصَارِيُّ وَنَحْنُ وُقُوفٌ بِالمَوْقِفِ مَكَانًا يُبَاعِدُهُ عَمْرٌو، فَقَالَ: إِنِّي رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْكُمْ يَقُولُ: «كُونُوا عَلَى مَشَاعِرِكُمْ، فَإِنَّكُمْ عَلَى إِرْثٍ مِنْ إِرْثِ إِبْرَاهِيمَ»(١).**

**ففي هذا الحديث إشارة إلى أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم هي على إرث من إرث إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهو الإرث الديني، إرث التوحيد وتقديس المشاعر وإسلام الوجه لله تعالى.**

**وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّهُ مَرَّ بِسُوقِ الْمَدِينَةِ، فَوَقَفَ عَلَيْهَا، فَقَالَ: «يَا أَهْلَ السُّوقِ، مَا أَعْجَزَكُمْ» قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: «ذَاكَ مِيرَاثُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقْسَمُ، وَأَنْتُمْ هَاهُنَا لَا تَذْهَبُونَ فَتَأْخُذُونَ نَصِيبَكُمْ مِنْهُ» قَالُوا: وَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: « فِي الْمَسْجِدِ» فَخَرَجُوا سِرَاعًا إِلَى الْمَسْجِدِ، وَوَقَفَ أَبُو هُرَيْرَةَ لَهُمْ حَتَّى رَجَعُوا، فَقَالَ لَهُمْ: «مَا لَكُمْ؟» قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ فَقَدْ أَتَيْنَا الْمَسْجِدَ، فَدَخَلْنَا، فَلَمْ نَرَ فِيهِ شَيْئًا يُقْسَمُ. فَقَالَ لَهُمْ أَبُو هُرَيْرَةَ: «أَمَا رَأَيْتُمْ فِي الْمَسْجِدِ أَحَدًا؟» قَالُوا: بَلَى، رَأَيْنَا**

---

(١) أخرجه الإمام الترمذي في «جامعه» كتاب: «الحج» بَاب: «مَا جَاءَ فِي الوُقُوفِ بِعَرَفَاتٍ وَالدُّعَاءِ بِهَا»، (٣/٢٢١) برقم: (٨٨٣)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

**قَوْمًا يُصَلُّونَ، وَقَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، وَقَوْمًا يَتَذَاكَرُونَ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ، فَقَالَ لَهُمْ أَبُو هُرَيْرَةَ: «وَيْحَكُمْ، فَذَاكَ مِيرَاثُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(١).**

**فالمقصود بالميراث هنا: الإرث الديني من قرآن وسنة نبوية.**

**وعن ابنِ عُمَرَ -رضي الله عنهما-، قَالَ: قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُوَ بِهَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ لِأَصْحَابِهِ: «اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ اليَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا، وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا...إلخ الحديث»(٢).**

**فالوارث هو الذي يبقى بعد الموروث، فإن فُقد السمع والبصر وسائر القوى من الإنسان في أثناء حياته، فالإنسان هو الوارث لها، أما إن مات وهو يتمتع بها فهي الوارث له، وهذا هو مطلوب الدعاء؛ أي يبقى الإنسان يتمتع بالسمع والبصر وسائر القوى طوال حياته(٣).**

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط»، (٢/ ١١٥) برقم: (١٤٢٩) وقال الإمام الهيتمي في المجمع: إسناده حسن، (١/ ١٢٤).

(٢) أخرجه الإمام الترمذي في «جامعه» كتاب: «الدعوات» بَابُ: « الدُّعَاءِ»، (٥٢٨/٥) برقم: (٣٥٠٢)، وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

(٣) «التراث التربوي الإسلامي» د: فتحي حسن ملكاوي، (٢٣/١)، ط: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط: الأولى ١٤٣٩هـ -٢٠١٨م .

**وجاء من حديث أبي الدرداء: «وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»(١).**

**وهكذا نفهم مما سبق عرضه من شواهد لغوية وأخرى قرآنية وحديثية، أن لفظ «التراث» يقصد به واحد من أربعة معانٍ أساسية، هي:**

**١- «ميراث المال، وهو الغالب.**

**٢- ميراث الحسب والنسب.**

**٣- ميراث النبوة والعقيدة.**

**٤- ميراث الحكمة والعلم والفكر والثقافة»(٢).**

**وعلى أية حال؛ فالتراث انتقال سواء أكان ميراثًا ماديًّا أو فكريًّا، فهو انتقال من إنسان إلى إنسان، أو انتقال حضارة من أمة إلى أمة أخرى.**

**بيد أننا نفهم أن علماءنا المحدثين وظفوا التراث بمفهوم آخر، وهو ما يتجلى في المفهوم الاصطلاحي للتراث.**

---

(١) أخرجه الإمام الترمذي في «جامعه» كتاب: «الْعِلْمِ» بَابُ: «مَا جَاءَ فِي فَضْلِ الفِقْهِ عَلَى العِبَادَةِ»، (٣٤٦/٤) برقم: (٢٦٨٢)، هذا الحديث أشار الإمام الترمذي على خلاف على أحد رواته، والحديث من وجهه الراجح صحيح.

(٢) «مناهج قراءات التراث في الفكر النهضي العربي، إشكالات ونماذج» تأليف د: عبد العزيز إنميرات، (ص: ١٢)، الناشر: مركز التأصيل للدراسات والبحوث، المملكة العربية السعوية- جدة، ط: الأولى: ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م.

## المطلب الخامس: الحقل الدلالي لمصطلح "تراث" في الفكر العربي والإسلامي

لعل مما يسترعي الانتباه وينبغي إبرازه أن كلمة «التراث» لم ترد في تراثنا العربي والإسلامي، ولم تعرف في أي عصر من عصور التاريخ العربي، كذلك يمكننا القول إن المضامين التي تحملها هذه الكلمة في أذهاننا اليوم لم تكن تحملها في أي وقت مضى«[1].

أما في الفقه الإسلامي، فقد عُني الفقهاء عناية كبيرة بطريقة توزيع تركة الميت على ورثته حسب ما قرره القرآن الكريم: فالكلمة السائدة عندهم هي كلمة ميراث، أما لفظ «تراث» فلا نكاد نعثر له على أثر في خطابهم القديم.

كذلك لا نكاد نجد أثرًا لكلمة «تراث» في الحقول المعرفية الأخرى، مثل: الأدب، وعلم الكلام والفلسفة.

هذا، ويمكن أن نلاحظ بالإضافة إلى ما تقدم أنه لا كلمة «تراث» ولا كلمة «ميراث» ولا أيًّا من المشتقات من مادة (و.ر.ث) قد استعمل قديمًا في معنى الموروث الثقافي والفكري؛ ومما يدلل على ذلك أن كلمة «التراث» كانت تستخدم دائمًا بمعنى «المال»، وبدرجة أقل بمعنى «الحسب»، أما شؤون الفكر والثقافة، فقد كانت غائبة تمامًا في تراثنا القديم"[2].

---

(١) «مناهج قراءات التراث في الفكر النهضي العربي، إشكالات ونماذج»، (ص: ٧٦).

(٢) «من التراث إلى الاجتهاد»، (ص:٢٤٧).

**ولنضرب على ذلك مثالًا؛ ففي مقدمة رسالة الكندي المعروفة بـ (كتاب الكندي إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى) عن فضل القدماء وواجب الشكر لهم وضرورة الأخذ عنهم- في مجال العلم والفلسفة- لا يستعمل العبارة الشائعة لدينا اليوم، عبارة «تراث الأقدمين»، بل يستخدم تعابير أخرى، مثل: «إذ أشركونا في ثمار فكرهم»، ومثل: «بما أفادونا من المقدمات المُسَهِّلة لنا سبل الحق»[1]، وكذلك نجد ابن رشد في كتابه: (فصل المقال) يستعمل في المعنى نفسه عبارات تخلو تمامًا من كلمة «تراث» أو ما يرادفها؛ يقول على سبيل المثال: «فبين أنه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا في ذلك»[2].**

**ونخلص مما سبق في تتبعنا للحقل الدلالي لكلمة التراث في الموروث القديم، أن التراث بمعنى الموروث الثقافي والفكري والديني والأدبي كما تشكل مضمونه في الخطاب العربي المعاصر، لم يكن موجودًا ولا حاضرًا في خطاب أسلافنا، ولا في حقل تفكيرهم، على اعتبار أنهم من أبدعوا هذا التراث وعملوا على تشكيل هندسته بالصورة التي عليها الآن، كما أنه غير حاضر في خطاب أي لغة أجنبية أخرى من اللغات التي نستورد منها بعض مفاهيمنا، وهذا يعني أن مفهوم التراث كما نتداوله اليوم، إنما نجد إطاره المرجعي داخل الفكر العربي الحديث وليس خارجه.**

---

(1) ينظر: «رسائل الكندي الفلسفية» تحقيق: د: محمد عبد الهادي أبي ريدة، (ص: ١٠٢)، ط: دار الفكر العربي، ١٣٦٩هـ- ١٩٥٠م.

(2) ينظر: سلسلة ذخائر العرب: «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» تأليف: أبي الوليد ابن رشد، (ص: ٢٦)، دراسة وتحقيق أ.د: محمد عمارة، ط: دار المعارف، ط: الثالثة، دون.

## المطلب السادس: مصطلح التراث في الحضارة الغربية

"يطلق مصطلح التراث (LEGACY) في الحضار الغربية المعاصرة على المخلفات الحضارية والثقافية والدينية؛ فإن الروح العلمانية (غير الدينية) المهيمنة على الفكر الغربي الحديث جعلته لا يميز بين الدين وبقية الإرث الحضاري؛ بل يتعامل مع التراث ولا فرق عنده بين ما مصدره الإنسان المخلوق، وما مصدره الإله الخالق؛ فالكل يتعرض لعملية النقد والانتقاء والقبول والرفض، ويخضع الدين ممثلًا في القرآن والسنة لهذا المنهج دون أية قدسية.

ومن هنا، يمكن اعتبار الوحي الإلهي تراثًا ضمن الظلال العلمانية التي أحاطت بمصطلح التراث: فالمشكلة إذن ليست في تعريف التراث كاصطلاح علمي حضاري، وإنما في هيمنة الفكر الغربي وقيادته للعلوم والثقافة، وتحديده لمصطلحاتهما وصبغها بصبغتة غير الدينية"[١].

(١) «التراث والمعاصرة» د: أكرم ضياء العامري، (ص: ٢٩).

# المبحث الثاني: التراث والوحي

**ويشتمل على المطالب الآتية:**

**المطلب الأول: التيار القائل بضرورة فصل التراث عن الوحي.**

**المطلب الثاني: التيار القائل بعدم فصل التراث عن الوحي.**

**المطلب الثالث: الفرق بين الفكر الإسلامي (بوصفه تراثًا) والوحي الإلهي.**

## مدخل

إن المتتبع لجل الكتابات التي تناولت التراث، إما مفهومًا أو مضمونًا أو إشكالًا، سيلاحظ أن نسيجها يتأسس على قسمين أساسيين:

**التيار الأول**: خاص بأصحاب الرؤية الإسلامية التي تنظر إلى الوحي من زاوية كونه الأساس، بناءً على ما يستفاد من اللغة، ومن القرآن في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[1]، والذي سمى التوراة والإنجيل ميراثًا بناءً على فهمه لقول الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ﴾[2].

فهذا التيار يصرح أصحابه مباشرة بوضع خط فاصل بين الطرفين (التراث والوحي)، وإن كانوا يؤكدون تبعية التراث للوحي، وقد برر هذا التيار وضع الخط الفاصل بناءً على نظرتهم إلى طبيعة التراث؛ من حيث هو فكر بشري، واجتهاد محكوم بطابع النسبية والتغير، وعلى الجانب الآخر يتصف الوحي بصفات الربانية والشمولية والثبات.

**وأما التيار الثاني**، فهو خاص بأصحاب الرؤية العلمانية العربية؛ فينطلق من الفهم العام لمفهومي النهضة والحداثة؛ بحيث يقدم تعريفاته بناءً على منهجية مستمدة من المرجعية العلمانية التي يتنتمي إليها[3].

فهؤلاء اعتبروا الوحى جزءًا من التراث، وذلك بغية إخضاعه للمناهج النقدية نفسها المستعارة من حقول العلوم الإنسانية الغربية التي نزعت

---

(1) سورة فاطر الآية: (٣٢).

(2) سورة الأعراف الآية: (١٦٩).

(3) ينظر: «مناهج قراءات التراث في الفكر العربي النهضي»، (ص: ٦٣).

**القدسية عن كل الظواهر والمعطيات المدروسة، وتعاملت مع كل النصوص بخلفية معرفية تؤكد أنه لا يوجد شيء فوق التحليل والنقد والمراجعة[1].**

**وللاقتراب من هذين التيارين، نورد فيما يأتي بعض النماذج من التعريفات الدالة على كل قسم على حدة:**

(1) ينظر: «المرجع السابق»، (ص: ٦٢).

## المطلب الأول: التيار القائل بضرورة فصل التراث عن الوحي

**يرى هذا الفريق ضرورة الفصل بين التراث والوحي، وأنه لا يجوز بأي حال من الأحوال الوصل بينهما على اعتبار ما للوحي من إطلاقية في مقابل نسبية التراث، وإليك نماذج وأعلام هذا التيار:**

**يؤكد الدكتور: عبد المجيد النجار أن التراث هو ما تناقلته أجيال الأمة من العلوم والمعارف، نظرية وتطبيقية في مختلف حقول المعرفة، ومختلف مجالات التطبيق في الحياة العملية، مما هو من كسبها الاجتهادي في التدين بالدين الإسلامي، فهمًا لأحكامه ومطلوباته المجردة، وتنزيلًا لها على واقع الحياة في مناحيها المختلفة[١].**

**وبهذا المعنى يخرِّج النجار – من مفهومه هذا– ما تناقلته الأمة من الوحي متمثلًا في نصوص القرآن الكريم والثابت من نصوص السنة النبوية المطهرة السالمة من المعارضة[٢]؛ وذلك لأنه موروث عن الأجيال السابقة بالرواية والنقل، وليس موروثًا بوصفه كسبًا اجتهاديًّا؛ إذ الوحي**

---

(١) ينظر: «مقاربات في قراءة التراث» د: عبد المجيد النجار، (ص: ٥٨)، الناشر: الدار المالكية– تونس، ط: الأولى ١٤٣٦هـ – ٢٠١٥م. بتصرف.

(٢) ينظر: نعني بالسنة الثابتة: ما هو أعم من السنة الصحيحة؛ فكثير من الكتَّاب يقولون: السنة الصحيحة، والصواب أن نقول الثابتة لكونها تشمل الخبر المتواتر، والصحيح لذاته، والصحيح لغيره، والحسن لذاته، والحسن لغيره؛ فدائرة الثبوت النبوي تشمل كل هذه المصطلحات الخمسة، بخلاف دائرة الصحة؛ فهي لا يتنظم تحت سلكها سوى الصحيح لذاته ولغيره فقط.

**إلهي، مستعل عن الإنسان يتسم بالإطلاقية وليس النسبية، وليس له فيه من مدخل سوى تلقيه والعمل بمقتضياته(١).**

**ومن جهته يذهب الدكتور: الطيب بوعزة؛ إلى أن مفهوم التراث يدل على شيء أنتج في فترة ماضية، ثم تناقل عبر فترات زمنية أخرى حتى تقادم، فأصبح تراثًا؛ ولذا فمفهوم التراث- وفق هذه الرؤية- لا يجب أن يستغرق الإسلام؛ لأنه وحي رباني، وليس نتاجًا بشريًّا أنشأه تفكير بشري محدد بالزمان والمكان، فتمر عليه فترات ليكتسب صفة القدامة، فيكون تراثًا.**

**وبناءً عليه، ينبغي أن نصطلح بالتراث الإسلامي كل العطاءات العقلية في الفكر والحضارة والعمران، تلك العطاءات التي ما هي إلا اجتهادات انطلقت من الوحي، وتفاعلت مع مشكلات وظروف حياتها، وأصابت أو أخطأت. أما الوحي السماوي، فهو ملزم لنا، وثابت ومطلق، وعلى أساسه تنهض ثقافتنا، وبمعالجته التشريعية يجب أن ننظم مجتماعتنا الراهنة(٢).**

**ويضيف أ. د: بوعزة- في تحديده لضرورة الفصل بين التراث والوحي- عاملًا آخر، يتجلى في اعتماد بعض الباحثين، وخاصة أصحاب الرؤية العلمانية، على التصنيف الذي أقامته الرؤية الغربية؛ بحيث يحمل الموقف الغربي خطأ منهجيًّا فادحًا في نظرته إلى التراث؛ إذ لا يفرق بين الإسلام (الوحي الإلهي) والفكر الإسلامي الذي أنتجته العقلية الإسلامية على امتداد تاريخها ومسيرتها الزمنية، وضمن ظروفها ومعطياتها**

---

(١) ينظر: «مقاربات في قراءة التراث» د: عبد المجيد النجار، (ص: ٥٨)، الناشر: الدار المالكية- تونس، ط: الأولى ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م. بتصرف.

(٢) ينظر: «مشكلة الثقافة في الوطن الإسلامي» د: الطيب بوعزة، (ص: ١٠٤)، الناشر: الدار البيضاء- المغرب: ١٩٩١م، بتصرف.

**التاريخية والحياتية، وبقدرات اجتهادية تفاعلت مع هذا المعطى فأدت إلى نتائج تحتمل الصواب والخطأ[١].**

**وعلى المنهج نفسه سار أ. د: حسين علي محفوظ الذي عرف التراث بأنه "كل ما ترك ماضونا من حضارة، وعلم، وأدب، ورأي، ودين، وصناعة، وفن، وكل ما ورث قدماؤنا من معقول ومنقول، وكل ما خلَّف أسلافنا من مأثور، وكل ما وصل إلينا من آلات، وأدوات، وأشياء، وكل ما يسيطر علينا من عادات، وأخلاق، وكل ما حفظه رواتنا من آثار"[٢].**

**ويعرفه أ. د: علي جمعة بأنه: «نتاج العقل البشري المسلم عبر القرون»، أو هو: «المنتج البشري المنقول الشفوي والكتابي للأمة الإسلامية قبل مائة سنة»[٣]؛ وذلك لأن قانون الآثار المصري المعمول به الآن يحدد مائة سنة سابقة على الآن حتى نعتبر الشيء في عالم الأشياء أثرًا[٤].**

**أو هو: «النتاج الذي جعل لنفسه محورًا وهو النص (الكتاب والسنة) بما اشتمل عليه من أحكام ومقاصد شرعية، تشتمل على قيم، وهذه المقاصد والقيم تعمل في وسط قواعد، وتعمل كل هذه المنظومة في مجال السنن الإلهية التي خلقها الله عز وجل، في الكون والنفس والمجتمع، فقد جعل**

---

(١) ينظر: «المرجع السابق» نفسه، بتصرف.

(٢) «تقييم التراث أساسًا ووسيلة» د: حسين علي محفوظ، (ص: ١٢٣)، مجلة المورد، (عدد خاص: التراث والمعاصرة)، مج:٧، ع: ٢، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

(٣) «الطريق إلى التراث الإسلامي: مقدمات معرفية ومداخل منهجية» أ.د: علي جمعة، (ص: ١٩)، الناشر: دار نهضة مصر، ط: السابعة- يناير ٢٠١٤م.

(٤) «المدخل إلى دراسة المذاهب الفقهية» أ.د: علي جمعة، (ص: ١٣)، الناشر: دار السلام للطباعة والنشر، ط: الرابعة ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

**المسلمون النص محورًا لحضارتهم، والمعنى: أنهم جعلوا النص الشرعي معيارًا للتقويم، ومنطلقًا للخدمة، ومرجعًا يرجعون إليه؛ ولذلك نجدهم قد ولدوا علومًا كثيرة كعلوم الفقه والأصول والنحو، وهم بذلك يريدون أن يخدموا النص[1].**

**مما سبق عرضه، تظهر معالم منهجية واضحة من خلال النماذج التي تم طرحها، وهي ضرورة الفصل بين التراث والوحي، وإن كانوا يؤكدون العلاقة الوطيدة الموجودة بين الطرفين على اعتبار أن محور هذه التركة هو الوحي الإلهي المنزل، وكل ما دار حول هذا الوحي من فهوم وتفاسير وشروح يُعَدُّ خدمة لهذا الوحي.**

(1) «المرجع السابق»، (ص: ١٦).

## المطلب الثاني: التيار القائل بعدم فصل التراث عن الوحي

يرى هذا التيار عدم الفصل بين الوحي والتراث، ويعني بعدم الفصل خضوعهما جميعًا للنقد والمراجعة؛ فترى أرباب هذا التيار لا يقيمون قداسة للوحي الإلهي المنزل، ولا لصحيح السنة النبوية المطهرة، بل يُعِدُّون كل ذلك تراثًا خاضعًا للنقد والمراجعة، وإليك نماذج من مفهوم التراث عندهم.

**مفهوم التراث عند محمد أركون**: يؤكد أركون أن التراث هو: القرآن والسنة وماله علاقة بالعلوم الإسلامية، كما يؤكد أن القرآن ليس إلا مجرد مجازات وخيالات لا تصلح أن تكون قانونًا بشريًّا كما هو الحال مع الأناجيل. أما الوهم الكبير، فهو اعتقاد الناس-اعتقاد الملايين- بإمكانية تحويل هذه التعابير المجازية إلى قانون فاعل ومبادئ محددة(١).

وهذه الرؤية للتراث- أعني للقرآن والسنة- تتوافق **دكتور حسن حنفي**: فليس للقرآن والسُّنة النبوية عنده أيُّ تقديس؛ فهما مجرد وصف لواقع نزلا فيه؛ حيث يقول: «نشأ التراث من مركز واحد، وهو القرآن والسنة، ولا يعني هذان المصدران أيَّ تقديس لهما أو للتراث، بل هو مجرد وصف لواقع»(٢).

---

(١) ينظر: «تاريخية الفكر العربي الإسلامي» محمد أركون، (ص: ٢٩٩)، ترجمة: هاشم صالح، الناشر: المركز الثقافي العربي- بيروت، ط: الثانية ١٩٩٦م، بتصرف.

(٢) «التراث والتجديد» د: حسن حنفي، (ص: ١٥٤)، المكتب المصري للمطبوعات- القاهرة- ط: الخامسة ٢٠١٣م.

**وكذلك يؤكد د: أحمد العلوي أن التراث هو: «القرآن الكريم وكلام محمد صلى الله عليه وسلم لا غير»[1].**

**ولا يعني هذا التيار أن القرآن والسنة تراث من الناحية اللغوية وفقط؛ فلو كان من هذه الناحية، لما كان هناك خلاف، بل إنهم يذهبون إلى أبعد من ذلك وهو أنهما– القرآن والسنة– جزء من التراث، يجري عليهما ما يجري على التراث من مناهج النقد الحديثة، والتعامل معما كأي اجتهاد بشري ليس له أية قدسية أو خصوصية، وهذا الفهم من الإشكالات المهمة التي كانت سببًا في ولوج لجة هذا البحث والسباحة في تياره الجارف، وللرد عليها، لا بد أن نفرق بين الفكر الإسلامي بوصفه فكرًا بشريًّا مجردًا والوحي الإلهي، وللإجابة عن هذا التساؤل كان المطلب الثالث.**

(1) «المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية» مجموعة من المؤلفين، (صـ: ٩٧)، ط: دار توبقال للنشر، الدار البيضاء– المغرب، ط: الثالثة ٢٠٠١م.

## المطلب الثالث: الفرق بين الفكر الإسلامي (بوصفه تراثاً) والوحي الإلهي

**يخلط كثير من الباحثين بين الفكر الإسلامي والوحي الإلهي المنزل، ثمة كثير من الاختلافات بينهما؛ فالفرق بين الفكر الإسلامي والوحي الإلهي هو الفرق بين ما لله وما للإنسان، فالفكر الإسلامي ما دار من فكر بشري واجتهاد حول الوحي الإلهي المنزل. أما الوحي الإلهي، فهو القرآن الكريم والسنة والنبوية المطهرة الثابتة، وهذا ما سيتناوله هذا المطلب بالتفصيل.**

**•إذا كان التراث إنساني النشأة والتكوين، فإن الدين (الوحي الإلهي) إلهي النشاة والتكوين، وإذا كان الإنسان هو الفاعل التكويني للتراث، فإن الله هو الفاعل التكويني للدين"[1].**

**وبعبارة المفكر الكبير أ.د محمد عمارة رحمه الله: •التراث الإسلامي منه ما هو وحي إلهي مقدس معصوم، وهو القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[2]، وتأتي السنة النبوية الثابتة لتمثل البيان النبوي لهذا البلاغ القرآني؛ لتكتسب العصمة إذا كانت «متواترة» قطعية الثبوت، أو «عملية» تجسدت في أرض الواقع وشهدت عليها الأمة ومارستها جيلًا بعد جيل"[3].**

---

(1) بحث محكم: «أزمة المنهج في فهم التراث» إعداد: الحسن حما، (ص: ٧).

(2) سورة فاطر الآية: (٣٢).

(3) موسوعة: «الإسلام وقضايا العصر» أ.د: محمد عمارة، (٢/ ٦١٣)، الناشر: شركة روابط للنشر وتقنية المعلومات– القاهرة، ط: الأولى ٢٠١٩م.

يعتبر أ.د/ محمد عمارة؛ القرآن الكريم تراثًا بدلالة النص القرآني؛ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ فالقرآن والسنة النبوية من هذه الناحية اللغوية فقط يدخلان في حكم التراث.

•وهذا التراث المقدس (الوحي- والبيان النبوي للوحي) لا يسمى فكرًا؛ لأن الفكر عملية بشرية خالصة، وإبداع إنساني، وثمرة للتفكر والتدبر والتعقل والتأمل، وجميعها من صفات الإنسان التي يتنزه عنها الله -سبحانه وتعالى، ومن الأمثلة على هذا «التمييز» في التراث والموروث: «الشريعة» و «الفقه»؛ فالشريعة: وضع إلهي ثابت، بينما «الفقه» اجتهاد بشري محكوم بإطار الشريعة وقواعدها؛ ولذلك كان «الشارع» هو الله- ولا يوصف بالفقيه-، وكان الفقيه هو الإنسان- ولا يسمى شارعًا-، ولأن إبداع الأمة الإسلامية الذي كَوَّنَ تراثنا الإسلامي، هو فكر غير مقدس ولا معصوم، دخل جميعه في باب «الاجتهاد» الذي لا عصمة له، وتجوز مراجعته، بل تجب هذه المراجعة لهذا اللون من التراث في كثير من الأحيان»[1].

وهذا ما أشار إليه كثير من العلماء منهم، فيطالب أ.د محسن عبد الحميد بضرورة وضع خط فاصل بين ما هو وحي إلهي، وما هو فكر بشري لمسائل الوحي الإلهي وتفسيره وشرحه في إطار قواعده وأصوله، وفي ضوء المراحل التاريخية المتتابعة، مؤكدًا أن تسمية الوحي وما حوله من فكر، بالفكر الإسلامي أو الفكرة الإسلامية لدى كثير من الإسلاميين

(1) «المرجع السابق»، (٢/ ٦١٤).

أنفسهم خطأ كبير شجع أرباب المذاهب المادية والعلمانية على الجرأة على تسميتها معًا بالتراث[1].

وبناءً عليه، فإن الفكر الإسلامي (التراث) شيء، والوحي الإلهي شيء آخر، ولا يمكن الخلط بينهما؛ فالأول هو ما تم إنتاجه لخدمة الثاني.

أما إذا كان المقصود جعل القرآن الكريم والسنة النبوية تراثًا حتى يخضعا لعملية المراجعة والنقد، فإننا في هذا الصدد نؤكد أن:

• القرآن والسنة النبوية يدخلان في التراث من ناحية اللغة فقط، لكن جرت العادة أن يخرج الكتاب والسنة من مصطلح التراث الذي يخضع للمراجعة والنقد، وقصره على الإبداع البشري، سواء ارتبط بعلوم الحضارة المدنية، أو بالعلوم الشرعية التي قامت حول الكتاب والسنة؛ ولذا يؤكد كثيرون ضرورة التفرقة بين معنى "**الكلمة**" أو "**المصطلح**" وبين المضمون المراد، الذي قد يختلف باختلاف الزمان والمكان، ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى أنه وإن دخل القرآن والسنة في المضمون اللغوي لكلمة التراث، فإنهما يسموان عليه؛ فالتراث ينطلق منهما وينضبط بهما، فالقرآن قَوَّام على التراث وحفيظ على ما فيه من قيم فاضلة، كما أنه- أي القرآن-

(1) ينظر: كتاب الأمة: «المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري» تأليف: أ.د: محسن عبد الحميد، (ص: ٢٣ب)، رجب ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

**قوَّام على السنة النبوية الثابتة التي هي تطبيق له، وهما جميعًا الإطار الذي يجب أن نرجع إليه ونحتكم إليه في كل قضايا تراثنا»**[1].

**ويؤكد الأستاذ الدكتور: فتحي ملكاوي المعنى نفسه؛ حيث يقول: •وعلى أساس ما ورد في القرآن والسنة النبوية والمعنى اللغوي، فإن بإمكاننا أن نعد القرآن الكريم والسنة النبوية من التراث الذي ورَّثه الله سبحانه وتعالى للأمة جيلًا بعد جيل، بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾**[2]**، لكن الأمة ورثت كذلك تراثًا من العلوم التي دارت حول القرآن الكريم والسنة النبوية، اجتهد فيها العلماء الذين دَوَّنُوا هذه العلوم، فاختلفت اجتهادات أبناء الجيل الواحد من العلماء للتفاوت فيما وصل إلى كلٍّ منهم من العلم، ولاختلاف فهمهم ودرجة تدبرهم، ولاختلاف الظروف التي كانت تسود بلدانهم، واختلفت اجتهادات العلماء جيلًا بعد جيل وقبيلًا بعد قبيل لاختلاف الزمن ومتطلباته، ووقوع المستجدات والنوازل، وبطبيعة الحال فإن هذا النوع من التراث مختلف عن القرآن الكريم والسنة النبوية، وطرائق التعامل معه مختلفة كذلك عن التعامل مع القرآن والسنة، فما وصلنا من التراث الذي**

---

(1) «قضايا إشكالية في الفكر الإسلامي المعاصر» إعداد د: حسني محمد نصر، د: صلاح إسماعيل عبد الحق، وآخرين (ص:١١٤)، تحرير د: نصر محمد عارف، ط: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٤١٨ هـ- ١٩٩٧م.

(2) سورة فاطر الآية: (٣٢).

**أنتجه العلماء ليس ملزمًا لنا كإلزام القرآن الكريم والسنة النبوية الثابتة"[١].**

**ولذلك رأى كثير من الباحثين أن يُمَيِّزُوا القرآن الكريم والسنة النبوية عن التراث، ويقصروا مفهوم التراث على إنتاج العلماء ليكون من السهل إخضاع هذا التراث للتحليل والنقد والمراجعة، أما القرآن الكريم والسنة النبوية، فهما المرجعية التي تكون مسئوليتنا تجاههما هي الفهم والتدبر والاتباع [٢].**

**•فالقرآن الكريم لا يعد تراثًا؛ لأنه ليس حالة تاريخية حتى لو نزل في الماضي واحتوى على إشارات لحوادث ووقائع تاريخية، ودارت بعض نصوصه حول قضايا اجتماعية واقتصادية كانت أسبابًا لنزول الوحي"[٣].**

**•كما أن السنة النبوية الثابتة التي هي مصدر تشريع ثان في الإسلام لا يمكن أن تُعَدَّ تراثًا؛ لأنها غير قابلة لأن تصبح شيئًا منسوخًا، بدعوى أنها متعلقة بأحكام وتوصيات ودلالات متعلقة بالماضي، وبحوادث لا يمكن أن تتكرر ولا داعي لاستعادتها، فكونها أصلًا تشريعيًّا ومفاتيح لاستنباط**

---

(١) «التراث التربوي الإسلامي» د: فتحي حسن ملكاوي، (٢٤/١).

(٢) ينظر: «المرجع السابق» نفسه.

(٣) «جداليات الفكر الإسلامي المعاصر»، (ص: ٢٥٢)، كتاب الأمة: «فقه الدعوة ملامح وآفاق» حوار مع الشيخ أبي الحسن الندوي، د. رشدي فكار، الشيخ: محمد الغزالي، وغيرهم، تقديم: عمر عبيد حسنة، (١/ ١٤٢)، الناشر: رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية– قطر، ط: الأولى ١٤٠٨هـ.

**أحكام الحاضر يجعلها غير خاضعة لمعنى التراث؛ لأنها حاضرة وستبقى حاضرة في المستقبل كما لو أنها جديدة الحدوث»[١].**

**واختار د: ملكاوي أن يتحدث عن التراث الإسلامي بوصفه •اجتهادات العلماء المسلمين التي كتبوها في حقول العلوم المختلفة، فورثناها عنهم؛ فالقرآن والسنة ليسا من التراث، وإنما هما المرجعية والمعيار الذان نحكم بهما على التراث، فنأخذ منه وندع، وفق ذلك الحكم، وهما كذلك المرجعية والمعيار فيما نأخذ وندع من الخبرات البشرية المعاصرة، وبالمدلول الاصطلاحي هناك فرق شاسع بين الوحي والتراث»[٢].**

**ويمكننا الجمع بين وجهتي النظر ما دام الخلاف لفظيًّا؛ وذلك لأنهما يعبران في نهاية المطاف عن غاية واحدة؛ •فالذين يرون القرآن والسنة من التراث، لاشتراك المعنى اللغوي وبالاعتماد على المعنى الوارد في القرآن الكريم، لا يرون بأسًا بتعميم مفهوم التراث على القرآن والسنة، لكنهم يميزون بين منهج التعامل مع القرآن والسنة من جهة، ومنهج التعامل مع ما أنتجه العلماء من جهة أخرى، أما الذين يرون فصل القرآن والسنة من معنى التراث، فالمسألة عندهم هي مسألة مصطلح، يتجنبون بواسطته خضوع القرآن والسنة لما يخضع له التراث البشري من نقد ومراجعة»[٣].**

---

(١) «فقه الدعوة ملامح وآفاق»، (١/ ١٤٢).

(٢) «التراث التربوي الإسلامي» د: فتحي حسن ملكاوي، (١/٢٤).

(٣) «المرجع السابق» نفسه، بتصرف.

**وتأييدًا لهذا المعنى وتأكيدًا له، يمكننا الاستشهاد بما ذكره أحد العلماء في الشأن نفسه؛ حيث يقول: «إن القرآن الكريم والسنة النبوية الثابتة هما أقدس ما نملك من تراث، بل هما أجل ما تملكه البشرية من كلمة، وليس من خوف في اعتبار القرآن والسنة الثابتة تراثًا، ولا يعني ذلك إخضاعهما لمبدإ الشك؛ هما فوق الشبهات، ما لا يعني إخراجهما من دائرة الشك أن ذلك سيحميهما من هجمات المبطلين؛ فلطالما كانا غرضين لسهام الأعداء منذ نزول قول الله سبحانه تعالى: «اقْرَأْ»، وقبل أن يردنا اصطلاح التراث بالتصور الغربي»[1].**

**وبذلك ندرك أنه لا داعي للإعراض عن اعتبار كل من القرآن والسنة الثابتة تراثًا؛ فهما في قمة التراث وأقدسه وأطهره، والأحق بالرعاية والدراية، ولا يخضعان البتة لما تخضع له بقية فروع التراث النابعة عنهما.**

---

([1]) «القرآن والسنة تراث» مروان كجك، (ص: ١٢٠)، مجلة البيان، عدد: ١٤٠، السنة: ١٤، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

# المبحث الثالث: العلاقة الجدلية بين التراث وغيره من المفاهيم التداخلية

## ويشتمل على المطالب الآتية:

**المطلب الأول: أهمية دراسة قضية التراث الإسلامي.**

**المطلب الثاني: العلاقة بين التراث والمقدس (الدين).**

**المطلب الثالث: العلاقة بين التراث والتجديد.**

**المطلب الرابع: العلاقة بين التراث والحضارة.**

**المطلب الخامس: حدود الاستلهام والتجاوز في التراث الإسلامي.**

**المطلب الأول**: **أهمية دراسة قضية التراث الإسلامي**

•تأتي أهمية التراث وتتحدد قيمته معرفيًّا، من حيث نشأته وتكونه في الإطار الزمني الإسلامي من جهة علاقته بالوحي، الذي كان إطارًا مرجعيًّا وثيق الارتباط به؛ فالتراث الفكري والعلمي الإسلامي كان متصلًا ومتفاعلًا بمرجعية الوحي، إلى درجة يخلتط في أذهان البعض إمكانية التمايز بينهما، وهي الإشكالية الملتبسة التي أضفت صفة القداسة على التراث، في حين أن التراث له صفة المنجز الإنساني النسبي والمتغير، الذي يقبل الصواب والخطأ، وموافقة الحق والواقع أو مخالفتهما، والوحي له صفة التنزيل الإلهي، المطلق والثابت، الذي لا يقبل إلا الصواب وموافقة الحق والواقع»[1].

•إن تراث الأمة يمثل ضمير أبنائها، وهو في بوتقة متقدة، تشع على الدوام مثيرات القوة الروحية الدافعة لأبناء هذه الأمة نحو السبق الحضاري، والرفعة والوجود الرائد في الواقع الحي، وهو الجوهر الحقيقي الذي يمثل "الهوية الثقافية والحضارية" لأمة من الأمم، وترجع القيمة العليا لهذه "الهوية الثقافية" إلى كونها تمثل الميزان الضابط للمسار الإبداعي في الأمة على مختلف الأصعدة؛ عقديًّا، وفكريًّا، وقيميًّا، وأخلاقيًّا، وتنظيميًّا، وتشريعيًّا، وأدبيًّا، وفنيًّا، ومدنيًّا»[2].

(١) «من التراث إلى الاجتهاد»، (ص: ٢٤١).

(٢) بحث: «قيمة كتب التراث في التدريس الجامعي ودورها في نهوض الأمة» د: مروان القدامي، (٢/ ١٥٥)، ضمن أعمال مؤتمر «علوم الشريعة في الجامعات: الواقع والطموح» في الفترة (١٦- ١٩) ربيع الأول ١٤١٥هـ- (٢٣- ٢٦) آب ١٩٩٩٤م. تحرير د: فتحي ملكاوي، د: محمد عبد الكريم أبوسل، الناشر: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط: الأولى شعبان ١٤١٦هـ- كانون أول ١٩٩٥م.

**•وتكمن أهمية التراث في علاقته بالوحي؛ فمن جهة علاقته بالوحي ظهرت وتبلورت وتأسست أبرز وأهم وأثمن المعارف والعلوم ذات النسق الإسلامي، مثل علوم القرآن، وعلوم السنة، والفقه وأصوله، والعقائد، والتاريخ والسيرة، والأخلاق والآداب ....إلخ"[1].**

**إن تراثنا هو وجودنا، ولا توجد أمة تزعم أنها أمة ذات حضور إنساني وتاريخي متميز، دون أن يكون لها تراثها الخالد والفاعل كذلك في التاريخ، ويمثل تراث الأمة الإسلامية العمود الفقري للتاريخ الحضاري والثقافي لها في عصورها الزمنية المختلفة، ومن هنا تكمن أهمية دراسة التراث الإسلامي حيث نضع أيدينا على نقاط القوة ونقاط الضعف فنعالجها.**

## المطلب الثاني: العلاقة بين التراث والمقدس •الوحي"

**يمكن القول إن النص القرآني هو البنية الرئيسة للتراث الإسلامي مع ضرورة التمييز أن التراث لا يعني النص في ذاته، بل فهم البشر له في زمن معين، وطرائق استخدامه وتوظيفه ومواقفهم المتعارضة منه أحيانًا، ومن هنا يرتبط التراث بالدين برباط محكم وشامل أحادي الاتجاه يتحول خلاله النص الديني إلى مصدر للتراث، لكنه على الرغم من أن الدين (الوحي) يشكل بنية محورية في هذا التراث، فإن التراث يختلف جملة**

(١) «من التراث إلى الاجتهاد»، (ص: ٢٤١).

**وتفصيلًا عن الدين، فالثاني (التراث) قام لخدمة الأول (الدين) بيانًا وشرحًا وتفصيلًا ....إلخ[١].**

**قد يذهب الكثيرون إلى الزعم- بحق أو بغير حق- "أن التراث هو (الدين) وإلى أن إخراج الوحي من حظيرة التراث ليعري التراث من كل قيمة حقيقية له، ونفهم من هذا أن هناك طابعًا من القداسة تضفيه العلاقة بين التراث والوحي، ومما لا شك فيه أن القداسة الدينية للنص القرآني تُضفى أحيانًا على الشروح والأعمال الإنسانية الدائرة حوله، وهذا يفسر ما نراه من الإجلال الكامل لأعمال ابن حنبل، وابن تيمية، والشافعي، وغيرهم من الأسماء التي لها دور كبير في تشكيل التراث الديني"[٢].**

**ولا يُعد من نافلة القول أن نؤكد أن هذه الأعمال مع جلال قدرها وقدر كاتبيها فهي مجرد اجتهادات إنسانية حول النص القرآني، والسبب في إضفاء القداسة عليها أنها دائرة حول الوحي.**

**ويمكننا أن نختتم هذه المسألة برؤية د: فهمي جدعان؛ حيث يذكر أنه لا قداسة للتراث، وأن القداسة كل القداسة للوحي، فيقول: "ونحن نعتقد أن الحقيقة النهائية هي أنه لا شيء مقدس في التراث، وبهذا نردُّ التراث إلى**

(١) ينظر: «إشكالية التراث في الفكر العربي المعاصر» د: أحمد محمد سالم، (ص: ٤١).

(٢) «أزمة المنهج في فهم التراث»، (ص: ٥- ٦)، وينظر: «إشكالية التراث في الفكر العربي المعاصر» د: أحمد محمد سالم، (ص: ٤١).

**حدوده الإنسانية الخالصة، وأنه لا مسوغ على الإطلاق لإضفاء قداسة على شيء غير الوحي"**[1].

**ومن هنا يمكن القول إن العلاقة بين (التراث) وبين (المقدس) علاقة مصطنعة تمامًا؛ لكن لا بد أن ثمة سببًا أو علة لدخول (المقدس) في التراث، وهذه العلة آتية من توهم دخول القرآن نفسه، والسنة النبوية نفسها في التراث كما مر آنفا.**

(١) «نظرية التراث، ودراسات عربية وإسلامية أخرى» د: فهمي جدعان، (ص: ٤٠)، ط: دار الشروق- عمان- الأردن، ط: الأولى ١٩٨٥م.

## المطلب الثالث: العلاقة بين التراث والتجديد

الحقيقة أن العلاقة بين التجديد والتراث علاقة وطيدة، والحاجة إلى التجديد ماسة كلما تعاقبت الأجيال وتغيرت الأحوال؛ فحاجة التراث إلى التجديد أكيدة حتى يضمن فاعليته وبقاءه في الحياة؛ ولهذا كان التجديد هو السبيل لوفاء هذا «الدين» بدوره الذي أنيط به في حياة هذه الأمة، فحتى يظل هذا البلاغ القرآني، وبيانه النبوي ثابتين في حياة هذه الأمة، لا بد أن يبقى فاعلًا في هذه الحياة، وإلا كان ثباته «ثباتًا مَتْحَفِيًّا» كما هو الحال مع «المومياوات».

وحتى نضمن تفاعله وتواجده في هذه الحياة المتجددة، لا بد من إعمال سنة التجديد لتجلية الوجه الحقيقي لمبادئه وعقائده ومناهجه وأحكامه من زوائد البدع ونواقصها، ومن غبش العادات والتقاليد، ومن غبار الخرافة وركام الشعوذة وانحرافات التصورات التي تعلو وجهه الحقيقي مع كَرَّ السنين وتوالي الحقب والقرون؛ فالعودة إلى المنابع الجوهرية والنقية وتجلية وجهه الحقيقي لتعود له قدرات الفعل والتأثير، هي «سلفية» و«تجديد»- في الوقت ذاته- وهذا هو المعنى الطيب الوحيد لمصطلح «السلفية» في منظور الإسلام، إنها العودة للمنبع، لا مخاصمة للحاضر والمستقبل، وإنما لاستصحاب المنبع كي نعقد قرانه على الواقع الجديد[1].

(١) ينظر: «أزمة الفكر الإسلامي المعاصر» أ.د: محمد عمارة، (ص: ٢٠)، ط: نهضة مصر للنشر والتوزيع، ط: الأولى نوفمبر ٢٠٠٦م.

## المطلب الرابع: العلاقة بين التراث والحضارة

تكمن علاقة التراث بالحضارة في أن التراث عنصر من عناصر الحضارة التي نهض بها المسلمون، وشهد لها العالم بالتقدم والتمدن؛ فالتراث الإسلامي تراث حضارة لها عبقريتها وابتكاراتها واكتشافاتها التي استفادت وتعلمت منها البشرية، بما في ذلك حضارة الغرب المعاصرة، بشهادة علمائها ومفكريها ومستشرقيها.

وفي الحقيقة، "لقد ظهرت الحضارة ونمت علوم الفلك والجغرافيا والصيدلة والكيمياء والحساب والجبر والطب... إلى غير ذلك، وهي العلوم التي أسهم المسلمون في ارتقائها وتعريف العالم بها"[(١)].

"لقد اعتبرت الحضارة الإسلامية على مر العصور حضارة الكتابة والتأليف بامتياز؛ فلم تؤلف أمة من الأمم المعروفة في العهد القديم أو الوسيط مثل ما ألفته الأمة العربية الإسلامية في ميادين المعرفة"[(٢)]؛

"حيث جَسَّدَ علماء المسلمين حينما كانوا ضالعين في أكثر من علم بكفاءة وابتكار، وبتنوع الحقول المعرفية؛ فنجد مثلًا عالمًا مثل ابن سينا، كان طبيبًا وألَّف في الطب كتابه الشهير: «القانون في الطب» الذي اكتسب شهرة علمية واسعة في معاهد وجامعات أوروبا فبعد أن ترجمه إلى اللاتينية "جيرار الكريموني"، ظل قرونًا عدة ممثلًا للمدرسة العربية في

---

(١) «من التراث إلى الاجتهاد»، (ص: ٢٤٢).

(٢) بحث: «التراث الإسلامي ريادة حضارية رغم النتوءات المؤرقة» تأليف: محمد السروتي، (ص: ٣٧٧) مجلة المدونة: السنة الثانية، العدد السابع، ربيع الأول: ١٤٣٧هـ- يناير (كانون الثاني) ٢٠١٦م.

**الطب في أوربا الغربية، ومحتفظًا بمكانته في «جامعة (مونبلييه) و(لوفان) حتى عام ١٦٥٠م»، وكذلك أصبح ابن سينا وزيرًا، وعالمًا في الإلهيات وصنَّف كتاب «الشفاء» الذي أشبه ما يكون بدائرة معارف تجمع وتضم حقول الإلهيات والطبيعيات والرياضيات»[١].**

**ولست أبالغ حين أقول إن التراث الإسلامي باني الحضارة وصانع النهضة، وليس أدل على ذلك من التحول الملحوظ في البنية الفكرية لذلك الإنسان في هذا الوقت؛ فهذا الإنسان البدوي المتخلف قد تحول إلى إنسان عالم ملم بمختلف المجالات العلمية والمعرفية، هذا التحول وهذا الإسهام المباشر والفاعل في تطوير المعرفة الإنسانية، وضمان استمراريتها هو «التراث»، ولا شك أن هذا التحول الجذري من البداوة والتبعية إلى الحضارة والريادة، حيَّر العقول وسَلَبَ الألباب على مر الأجيال ودفعها للتساؤل عن السر الكامن وراء هذا الانتقال المفاجئ والسريع، فكان محط أبحاث ودراسات في مختلف العصور، ويكفي أن نشير هنا إلى أن "ليو "بابا الفاتيكان سنة (٩٩٩م)، وقف منبهرًا أمام إحدى مكتبات القاهرة، التي يفوق عدد كُتبها المليونين ونصف، فقال قولته المشهورة: "إن أعلم علماء أوروبا لا يستحق أن يكون بوابًا لهذه المكتبة!!"؛ لأن أوروبا كلها في ذلك الوقت لم يكن بها نصف عدد الكتب الموجودة في مدينة واحدة كالقاهرة، أو بغداد[٢].**

(١) «من التراث إلى الاجتهاد»، (ص: ٢٤٢).

(٢) ينظر: «التراث الإسلامي ريادة حضارية رغم النتوءات المؤرقة»، (ص: ٣٧٨).

**لقد كانت هذه المقولة بحق مستفزة للعقول والهمم، ودفعت المستشرقة "زيغرد هونكه" للبحث عن السر وراء هذا الانبهار الكبير للبابا، وكذا عن سر هذا التحول الجذري الذي قاد المسلمين للريادة الحضارية، فكانت ثمرة ذلك كتابها: «شمس العرب تسطع على الغرب»(١)، وفي هذا الصدد، يتحدث مؤرخ الحضارة "ول ديورانت" عن شغف المسلمين بالكتب واقتنائها، وعن كثرة المشتغلين بالعلم، تأليفًا وتمحيصًا وتدريسًا، يقول: «إنَّ عدد العلماء في آلاف المساجد المنتشرة في البلاد الإسلامية من قرطبة إلى سمرقند لم يكونوا يقلُّون عن عدد ما فيها من الأعمدة»(٢).**

**وأختم بابن رشد الذي كان طبيبًا وقاضيًا وفقيها وفيلسوفًا، ألَّف في كل هذه الحقول المعرفية بكفاءة عالية؛ إذ يصفه ابن الأبار بقوله: "كان يفزع إلى فتواه في الطب كما يُفْزَع إلى فتواه في الفقه"(٣)؛ لذلك اكتسب شهرة واسعة وتأثيرًا فكريًّا قل نظيره في المنظومة الفكرية لأوروبا التي استطاع أن يخترقها بتيار عرف بتيار الرشدية، كما أشار إلى ذلك المفكر الفرنسي أرنست رينان(٤).**

---

(١) ينظر: «التراث الإسلامي ريادة حضارية رغم النتوءات المؤرقة»،(ص: ٣٧٨).

(٢) «قصة الحضارة» تأليف: وِل ديورَانت، (١٣/ ١٧١)، تقديم، د: محيي الدِّين صَابر ترجمة، د: زكي نجيب محمُود وآخرين، الناشر: دار الجيل، بيروت – لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس : ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م.

(٣) «الموسوعة الفقهية الكويتية» صادرة عن: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية– الكويت (١/ ٣٢٨)، ط: الثانية، دارالسلاسل– الكويت، ١٤٠٤ – ١٤٢٧هـ.

(٤) ينظر: «ابن رشد والرشدية» تأليف: أرنست رينان، (ص: ٥)، ترجمة: عادل زعيتر، طُبع بدار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٧م.

## المطلب الخامس: حدود الاستلهام والتجاوز في التراث الإسلامي

يمكننا أن نقف على حدود فاصلة في موروثنا الفكري فيما يتعلق بمسألة الاستلهام والتجاوز؛ فهناك في تراثنا الفكري ما يستحق أن نستلهمه ونعمل على إحيائه وتجديده والبناء عليه، وعلى الجانب الآخر نجد ما قد تجازوه الواقع، فهذا لا بد من تجاوزه، ولا نعني بالتجاوز الاستبعاد والنفي، بل نحتفظ به في سجل تاريخ الأمة الإسلامية بوصفه للعظة والاعتبار شاهدة على إبداع هذه الأمة، أو حفاظًا على هوية الأمة وتاريخها من الاستلاب الثقافي(١).

ويمكننا القول إن مثل هذا التراث يوضع في الأرفف العالية؛ بحيث تمتد إليه يد الباحثين المتميزين النابغين ذوي الهمم العالية والثقافة الواسعة للإفادة من هذا التراث كتأريخ للأمة، ولعلنا في قابل الأيام نحتاج لمثل هذه المسائل التي تجاوزها واقعنا المعاصر.

وهذا ما أكده المفكر الإسلامي أ. د: محمد عمارة؛ حيث قال:

• هذا الموروث المتنوع والغني الذي يمثل فهم السلف الصالح للبلاغ القرآني ولبيانه النبوي، وأبدعه أسلافنا في علوم الحضارة، ثقافة ومدنية، فإنه بالنسبة لنا: «كنز- مرشد» علينا أن نتعامل معه بعقل معاصر، ونظرة ناقدة، وفكر مستنير؛ لنسترشد ونهتدي بما فيه من علم نافع ما زال صالحًا للعطاء، -وهو كثير، وكثير جدًّا- ولننعش به ذاكرة الأمة، ونشحن به كبرياءها المشروع اللازم لها وهي تواجه عاتي التحديات، ولنوفر جهودًا كثيرة تلزمنا إذا نحن أهملناه وبدأ من حيث بدأ الأسلاف، إننا

(١) ينظر: «أزمة الفكر الإسلامي المعاصر»، (ص: ٢١).

مدعوون إلى حفظ كل تراثنا، حفاظًا على ذاكرة الأمة، واستفادة بخبرات السلف على النحو الذي يضيف أعمارهم إلى أعمارنا، ومدعوون إلى أن نُحيي من هذا التراث في واقعنا المعاصر ما لديه صلاحية كي يزامل إبداعنا الجديد في تحقيق المصالح الشرعية والضرورات المتجددة"(١).

«ففي مجرى التطور لا يأتي الجديد نفيًا كاملًا للقديم، تخريبًا له وتدميرًا، وإنما يتمثل ويستخدم كل ما تضمنه القديم من عناصر إيجابية، قابلة للحياة، فإن النفي ليس هدمًا بقدر ما هو بناء، ليس إلغاء بقدر ما هو تطوير، إنه نفي ينطوي بالضرورة على التوارث وعليه؛ فلا يمكن الثقافة بشكل عام أن تتطور بدون توارث، وعليه- كذلك- فإن التراث منطلق لا غنى عنه للسير قدمًا في ركب الحضارة»(٢).

«أما بالنسبة لما تجاوزه التطور من إبداع السلف، فإننا نتجاوزه معتزين به، واضعين إياه في متحف التاريخ الفكري، مادة للعظة والعبرة، ووثيقة في دراسة هذا التاريخ.

تلك هي حدود «الاستلهام» «التجاوز» لما ورثناه من إبداع أسلافنا في ميادين الفكر والممارسات»(٣).

---

(١) «المرجع السابق»، نفسه.

(٢) «مناهج قراءات التراث في الفكر النهضي العربي، إشكالات ونماذج»، (ص: ٣٢).

(٣) «أزمة الفكر الإسلامي المعاصر»، (ص: ٢١).

## المبحث الرابع: خصائص التراث الإسلامي

يحتل التراث الإسلامي أهمية بالغة؛ فقد ظل هذا التراث سندًا للحضارة العربية، تستمد منه شخصيتها، وروحها التي جعلت منا أمة واحدة على تباعد الأقطار، وتفاوت العصور، أمة عربية في لسانها، وفي عقلها وفكرها، وفي عاداتها وتقاليدها؛ مما كان له أكبر الأثر في عوامل النهوض بالدعوة الإسلامية التي أرسل بها خير البشرية محمد ﷺ، ومن أهم ما يتميز به تراثنا الفكري عن تراث الأمم الأخرى خصائص عدة، منها:

١- اتصال التراث الإسلامي بالوحي الإلهي؛ حيث قام هذا التراث على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

٢- النقاء للتراث الإسلامي من الأساطير والخرافات والأوهام في غالبية أجزاءه؛ حيث صدر عن فكر رباني تتصل منابعه الأولى بوحي إلهي متكفَّل الحفظ، ومضمون الحياة؛ فهو غير قابل للموات الترايخي تحت أي ظرف كان[١].

٣- تعزيز الهوية: التراث هو معين الهوية التاريخية والاجتماعية للحضارة والأمة، وهو سبب تميز ثقافة الأمة عن ثقافات الأمم الأخرى[٢].

---

(١) ينظر: «قيمة كتب التراث في التدريس الجامعي ودورها في نهوض الأمة»، (٢/ ١٥٧).

٢)) ينظر: «مطالعات في الدين والإسلام والعصر» د: محمد خاتمي، (ص: ٧٢)، تقديم: على محمد أبطحي، ط: دار الجديد- بيروت -لبنان، ط: الأولى ١٩٩٨م.

**التراث ضرورة بكل المقاييس من أجل تحقيق الهوية والحفاظ على ذاتية الأمة وخصائص وجودها[١].**

**٤- يمثل منظومة حضارية إنسانية متكاملة، وفلكًا ثقافيًّا وفكريًّا مستقلًا هيمن على مسارات الحركة الإنسانية المدنية والمعرفية والثقافية لقرون طويلة، قبل أن يدخل مرحلة الجمود الأخيرة، وهذا جعله تراثًا غير قابل للتهميش، وغير قابل للذوبان، وغير قابل للدخول في مسالك التبعية الحضارية لأي نتاج حضاري إنساني آخر[٢].**

**٥- هو نتاج بشري نسبي زمني قابل للأخذ والرد.**

**فالتراث له صفة المنجز الإنساني النسبي والمتغير، وبناءً عليه فهو يقبل الصواب والخطأ، وموافقة الحق والواقع ومخالفتهما؛ ولذلك يجب التعامل مع هذا التراث على أنه منتج بشري غير مقدس؛ فالجمود مخاصمة للواقع وقتل للإبداع.**

**٦- له لغة تميزه ومصطلحات خاصة به[٣].**

**كذلك من الخصائص التي لا يمكن لباحث التراث إغفالها، هي لغة التراث ومصطلحاته؛ وذلك لأن التراث الإسلامي له لغته التي تميز بها**

---

١)) ينظر: «مناهج قراءات التراث في الفكر النهضي العربي»، (ص:٤٠).

(٢) ينظر: «قيمة كتب التراث في التدريس الجامعي ودورها في نهوض الأمة»، (٢/ ١٥٧).

(٣) ينظر: «الطريق إلى التراث: مقدمات معرفية ومداخل منهجية»، (ص: ٤٦).

**ومصطلحاته الخاصة به، وتغييب هذه المسألة يتسبب في تعقيد عملية التواصل الصحيح مع النص التراثي.**

**وقد لا أختلف مع الكثيرين إن قلت إننا نحتاج في تعاملنا مع النص إلى مفاتيح عدة، لعل في مقدمتها "مفتاح المصطلح الذي يبسِّط لغته، ويجعله قابلًا للعيش في أي عصر من العصور وعليه، يكون المصطلح التراثي وعاء الممارسة التراثية؛ بحيث يصبح معها تأكيد فهم المصطلح في نصه أولًا، وتاريخيته ثانيًا، وضمن شخصية الأمة ثالثًا"[١].**

**وهذا ما أكده ابن خلدون من ضرورة فهم المصطلح كما أُنتج في عصره بقوله: "لا ينبغي أن يُحمل إلا على ما كان يُحمل في عصرهم، فهو أليق بمرادهم منه"[٢].**

**٧- يُصوَّر أصدق تصوير لوسطية الإسلام، واعتدال مقاصده وأحكامه واتفاقها مع الطبيعة البشرية التي فطر الله الناس عليها، فلا تطرف ولا تراخي[٣].**

---

(١) «مناهج قراءات التراث في الفكر النهضي العربي»، (ص: ٦٣٤).

(٢) «ديوان المبتدإ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر» تأليف: عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون، (ص: ٥٧٣)، تحقيق: خليل شحادة، الناشر: دار الفكر، بيروت، ط: الثانية، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

(٣) «قيمة كتب التراث في التدريس الجامعي ودورها في نهوض الأمة»، (٢/ ١٥٧).

**٨- إنه يمثل تجربة فريدة لتطبيق النص على الواقع بكل معانيه[١].**

**وأحسب أن تنزيل النص وتطبيقه على الواقع المعاش بكل أبعاده ومشكلاته لا بد من فهم الواقع أولًا ومشكلاته ثانيًا، وهو ما يسميه علماء الأصول «تحقيق المناط» وفهم النص الديني ثالثًا، حتى يتسنى تطبيق النص عليه بفهم ووعي حقيقيين:**

**• أما الفهم، فهو فهم الدين، بوصفه تعاليم هادية إلى الحق، وفهم الواقع الإسلامي، الذي يراد إصلاحه، فلما كان هذا الفهم شرطاً ضروريًّا للتدين، وجب أن يؤصل فيه البحث من جهة كونه فهمًا لأجل التنزيل، وما يقتضيه ذلك من أسس للفهم ومن قواعد فيه، سواء فيما يتعلق بفهم تعاليم الدين من أصولها، أو بفهم واقع المسلمين في مكوِّناته المتشابكة وأبعاده المختلفة»[٢].**

**وبعد، هذه بعض خصائص التراث الإسلامي، الذي يُعَدُّ من أخص خصائص حضارتنا الإسلامية؛ فالحفاظ على التراث حفظ للهوية من الاستلاب الثقافي والحضاري، لكن على صعيد الأفكار لا يمكن أن نغفل قيمة المراجعات للأفكار التراثية؛ فلا بد من مراقبة الأفكار، فإن الفكر يعتريه ما يعتري الإنسان من حال الصحة والمرض؛ فقد تشيخ الفكرة وتحتاج إلى استبدال بما بتوافق وعصرنا وزماننا، فالأفكار كالدواء لها آثار سلبية، لا بد من مراقبتها قبل أن نتحرف عن مقصدها.**

---

(١) «الطريق إلى التراث: مقدمات معرفية ومداخل منهجية»، (ص: ٤٦).

(٢) كتاب الأمة: «في فقه التدين فهما وتنزيلا» د: عبد المجيد النجار، (١٣/١)، ط: الثانية ١٤٠٧هـ.

## المبحث الخامس: مناهج المتعاملين مع التراث الإسلامي

إن من الأمور المهمة التي نود ذكرها، وإلقاء الضوء عليها، الحديث عن مناهج المتعاملين مع التراث؛ فهناك ثلاث طرائق رئيسة في التعامل مع التراث العربي الإسلامي، وبالتالي اتخذت هذه الطرائق ثلاث صور منهجية؛ وهي: أولًا: **القبول المطلق**. **ثانياً**: **الرفض المطلق**. **ثالثاً**: **الانتقاء العشوائي "اللامنهجي"**، وإليك بيان كل صورة على حدة:

### الصورة الأولى: القبول المطلق

وهي صورة تقليديَّة ترتكز على التعامل التراثيّ التقليديّ مع التراث؛ فهذا الفريق يقدس التراث كله كما هو دون أي مراجعة، ويرى أن التراث كله خير [1]، ويربط هذا الفريق بين مراجعة التراث والهوية.

هذا الفريق تراثي ماضوي، وليس تراثيًّا سلفيًّا كما يدَّعي؛ لأن مفهوم السلف مفهوم إسلامي أصيل نعتز به، أما هؤلاء، فهم ماضويون يقدسون الماضي أيًّا كان[2].

"فالعودة إلى المنابع الجوهرية والنقية في تراثنا الإسلامي وتجلية وجهه الحقيقي لتعود له قدرات الفعل والتأثير ، هي «سلفية» و «تجديد»

---

(1) ينظر: «قضايا إسلامية معاصرة» تأليف أ. د: طه جابر العلواني، (ص: ٥٩)، ط: دار الهادي– بيروت، دون.

(2) ينظر: «التراث والمستقبل» تأليف أ. د: محمد عمارة، (ص: ١٥١)، وما بعدها، ط: دار السلام– القاهرة، ط: الأولى ١٤٣٣هـ–٢٠١٢م،ينظر: «التراث وأثره في بناء الحاضر وإبصار المستقبل» د: عبد السلام رياح، (ص: ١٠)، ط: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط: الأولى ١٤٤٠هـ–٢٠١٩م.

**في الوقت ذاته، وهذا هو المعنى الطيب الوحيد لمصطلح «السلفية» في منظور الإسلام»[1].**

**ويتَّسم هذا التعامل مع هذا التراث بالرؤية السلفيَّة الماضويَّة[2]، ويعني هذا: أنَّ الصورة العامَّة التي نجدها عند هؤلاء عن المعرفة بالتراث، بمختلف فروعه الدينية واللغويَّة والأدبيَّة، تقوم على منهجٍ يسمى بالفهم التراثيّ للتراث، الفهم الذي يأخذ أقوال الأقدمين كما هي، سواء تلك التي يعبِّرون فيها عن آرائهم الخاصّة، أو التي يرون من خلالها أقوال من سبقوهم، والطابع العام الذي يميِّز هذا النوع من المنهج هو الاستنساخ والانخراط في آفتين اثنتين؛ الأولى: غياب الروح النقديّة العملية، والثانية: فقدان النظرة التاريخيّة، وطبيعيّ والحالة هذه، أن يكون إنتاج هؤلاء هو: «التراث يكرّر نفسه»، وفي الغالب بصورةٍ مجزّأةٍ ورديئة[3].**

**ويمكننا بالإضافة إلى غياب النزعة النقديَّة الموضوعيَّة، والركون إلى التعامل اللاتاريخيّ مع التراث العربيّ الإسلاميّ، أن المدرسة التقديسية بهذا التعامل تحول الفكر إلى اجترار لا إبداع فيه ولا تجديد.**

---

(1) «أزمة الفكر الإسلامي» تأليف أ. د: محمد عمارة، (ص: ٢٠).

(2) ينظر: «نظرية التراث ودراسات عربية وإسلامية أخرى»، (ص: ٢٣). ونعني بالسلفية الماضوية جماعة من الناس بتبنون الفكر الماضي بكل أبعاده وخصوصياته التاريخية؛ فهم يريدون أن ينقلوا الماضي بكل أبعاده وخصوصياته إلى الحاضر على اعتبار أنه كان ماضيًا مشرقًا وحضاريًا، ويحسبون أنهم بنقلهم الماضي كما هو فإنهم ينقلون إلينا التقدم والحضارة، وغاب عن أذهان هؤلاء الصيرورة التاريخية وفوارق الزمن ومستحدثات الأمور وخصوصية واقعنا.

(3) ينظر: «من التراث إلى الاجتهاد»، (ص: ٢٥٤) بتصرف.

يقول أ. د: علي جمعة: "إن التفكير الماضوي يختزل القضية، ويجعل التراث بظرفه التاريخي ونسبيته، حاكمًا على عصر غير عصره، وأناس غير أناسه؛ مما يترتب عليه كثير من المشكلات"[١].

## إشكالية المدرسة التقديسية

تتلخص إشكالية النزعة التقديسية في أنها لا تعتبر التراث حصيلة يمكن التصرف فيها، بل يتم التعامل مع التراث كالإرث «الأسطوري» الذي يجب أن يحفظ دون أي تغيير، ومن الواضح أن هذا الموقف يرتبط ارتباطًا بالبنية الاجتماعية الثابتة والمنغلقة التي هيمنت على المجتمعات العربية الإسلامية طيلة قرون متوالية[٢].

ويصف أصحاب هذه النزعة هذا الجمود بالأصالة، ويرون أن هذا الجمود وهذا التقديس فيه المنجاة من التفسخ الاجتماعي والاستبداد السياسي[٣].

ونقول لهؤلاء: «إن عملية «تقديسِ التراث» تستهدف بالأساس «الاستيلاءَ عليه»؛ عبرَ «احتكارِ تأويله» وفرضِ روايةٍ واحدةٍ صحيحةٍ عنه دون غيرها وذلك بدافع الاستيلاء على الحاضر؛ فهم يظنون أنَّ مَن

(١) «الطريق إلى التراث»، (ص: ٥٢).

(٢) ينظر: «النص الديني والتراث الإسلامي، قراءة نقدية» د: أحميدة النيفر، (ص: ٣٦٠)، ط: دار الهادي- بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

(٣) ينظر: «المرجع السابق نفسه».

**ينتصر في معركة التراث ينتصر في الحاضر !»** [1].

**«في حين أن التراث ليس مُقَدسًا، ولا مُدَنسًا، ولا حَلَبة مواجهةٍ، إنه «موضوعٌ للمعرفةِ» وحسب»**[2].

**إنه موضوع إذا أحسن العلماء المعاصرون الاستفادة منه لاستطاعوا بذلك نقل العلوم والمعارف النافعة إلى فضاء الواقع الرحيب، وتغيير واقع الأمة المأزوم إلى واقع يعج بالحياة ويتمتع بالرفاه.**

## الصورة الثانية: الرفض المطلق

**في الاتجاه المقابل للفريق الماضوي، يظهر فريق يرفض التراث جملة وتفصيلًا، ويلهث وراء النموذج الغربي العلماني الحداثي، يرى فيه أنه نموذج التقدم والنهضة والمعاصرة، يقلد الغرب ويحاكيه، وهو يفعل ذلك أيضًا بدون أي مراجعة، وعندما تواجهه مشاكل التقدم (الحداثة غير المنضبطة)، يقول: هذا هو ثمن التقدم**[3].

**•كان هذا هو موقف الصفوة من المفكرين والمثقفين الذين سلكوا إلى الفكر والثقافة سبيل المدارس المدنية، غير الدينية، تلك التي أنشأها محمد علي باشا بمصر (١١٨٤-١٢٦٥هـ/١٧٧٠-١٨٤٩م) ثم عرفت**

---

(١) «نقد التراث» د: عبد الإله بلقزيز، (ص: ٤٣)، الناشر: مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط: الأولى: نوفمبر ٢٠١٤م.

(٢) «المرجع السابق» نفسه.

(٣) ينظر: «التوجيه الإسلامي للخدمة الاجتماعية: المنهج والمجالات» إعداد مجموعة من الباحثين، (ص: ١٧)، تقديم د: طه العلواني، ط: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، ينظر: «التراث وأثره في بناء الحاضر وإبصار المستقبل» د: عبد السلام رياح، (ص: ١٠).

طريقها إلى خارج مصر من ديار العروبة والإسلام، وهؤلاء قد عرفوا علوم العربية، وعلوم الشرع على النحو الذي قدمه لهم أهل المحافظة والجمود فنفرت عقولهم وقلوبهم من هذه العلوم، ثم ازدادوا نفرة عندما بهرتهم الحضارة الأوروبية التي ذهبوا إلى مركزها، فنهلوا من علومها ومعارفها، وشاهدوا هناك تطبيقاتها التي قدمت الكثير والكثير لتقدم الإنسان"[1].

فهؤلاء رأوا أن السبيل الوحيد للتنوير والبعث والنهضة، هو البدء من حيث انتهى الأوروبيون، فرفضوا التراث جملة واحدة، ورأوا أن التراث يمثل عقبة في وجه التقدم، وسببًا من أسباب التخلف.

رأى هذا الفريق أن الاهتمام بالتراث يمكن أن يتسبب في محدودية الفكر العربي وتخلفه بالنسبة لمستوى تطور المجتمعات الأخرى، إنه يصبح -حسب تعبيرهم- الحكمة المعرقلة والكابحة دون معايشة العصر، إلا أن هذا الموقف الداعي إلى رفض ومقاطعة التراث يتجاهل مدى تأثير هذا التراث في عملية بناء الحياة العربية الحاضرة والمستقبلية[2].

## الصورة الثالثة: الانتقاء العشوائي (اللامنهجي)

وهو القبول والتمسك والرفض الشديدين لأجزاء من التراث، على حسب ما تقضيه مصلحة هؤلاء، وهذه هي سمة معظم الجماعات والحركات الإسلامية، فالمنهجية البادية للعيان هي مصلحة هذه الحركات، ويتم من خلال هذا المنهج القبول والرفض[3].

---

(1) «التراث والمستقبل» تأليف أ. د: محمد عمارة، (ص: ١٥٢).

(2) ينظر: «االنص الديني والتراث الإسلامي»، (ص: ٣٦١).

(3) ينظر: «الطريق إلى التراث»، (ص: ٥١).

هذا الفريق ينتقي ويأخذ من التراث ما يرى أنه صالح ومناسب لحركته، ويرفض ما يراه غير مناسب، دون أن يكون هناك منهج واضح منضبط للأخذ والرد، يمكن الاحتكام إليه [1].

•قد يظن البعض أن هذا هو الموقف الصحيح، لكن يمكن القول لهم إن هذا قد يكون صحيحًا لو تم هذا في إطار منهجي ومعرفي يستطيع من خلاله أن يحدِّد ما يأخذ وما يترك، بطريقة منهجيَّة ومعرفية، لكن حينما لا نفعل هذا فقد أصبحت القضيَّة راجعة لأفكاره.

وإذا تجاوزنا ما ذكرناه من المناهج الثلاثة للتعامل مع التراث:

- فلا نرفض التراث رفضًا قاطعًا كما يفعل العلمانيون.

- ولا نتبناه تمامًا كما يذهب إلى ذلك الماضويون.

- ولا ننتقي انتقاءً عشوائيًّا غير ملتزم بمنهج علمي، فما إلى ذلك الموقف الوسط الذي نتبناه ونعمل بمقتضاه" [2].

**الموقف المختار، هو**: موقف الذين يأخذون التراث والمعاصرة بمنهجيَّة واضحة ترى الأمور رؤية شموليّة قرآنية نبوية، ونعني بهذا المنهج أن يتم التعامل مع التراث بمنهج القرآن والسنة؛ وبمنهج رؤيتهما الشمولية، وذلك بمراجعة «التراث الإسلاميّ» مراجعة نقديَّة تبدأ بمحاكمة ذلك التراث وعرضه على كليَّات القرآن المجيد والسنة، ومقاصدهما العليا

---

(1) ينظر: «الجمع بين القراءتين، الوحي والكون» تأليف أ. د: طه العلواني، (ص:٧٢)، ط: دار السلام- القاهرة، دون، «التراث التربوي الإسلامي» د: فتحي حسن ملكاوي، (٤٥٦/١).

(2) «قضايا إسلامية معاصرة»، (ص: ٧٤).

**الحاكمة، لاستبعاد مَا يتعارض وقيم القرآن المجيد والسنة، ويؤدي إلى الغلوّ والتطرُّف والتعصب ورفض الآخرين، ويسمى هذا "الانتقاء المنهجي"[1]، انتقاء ممنهجًا ومنضبطًا بمنهج القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.**

(1) ينظر: «قضايا إسلامية معاصرة»، (ص: ٧٤).

## المبحث السادس: معيقات مراجعة التراث وتجديده

في سبيل تأسيس قراءة جديدة لتراثنا الفكري الإسلامي، لا بد من معرفة بعض المعوقات التي حالت وتحول دون مراجعته وتجديده، من هذه المعوقات:

### ١- إضفاء طابع القداسة على التراث

•يأتي هذا التوظيف لطابع القداسة على التراث من إشكالية التعريف، أما وقد زال هذا الإشكال بعد تحرير محل النزاع، فإن هناك بُعدًا آخر لهذا التقديس، وهو أن بعض القراءات الإحيائية (السلفية التقديسية) التي تستند إلى النظرة التقليدية في تعاطيها للتراث تتعامل معه بنوع من القداسة كما تتعامل مع النص الديني نفسه، وهنا يجب أن نفرق بين النص الديني وتفسيراته وتأويلاته؛ فالأخيرة جُهد بشري يتم من خلال العقل ومن خلال آليات الاجتهاد، أما الأول، فهو نص مقدس قطعي الدلالة ولا مجال للمساس به بوصفه عقيدة وشريعة"[1]. فهؤلاء تراثيون موغلون في الماضوية، لا يكادون ينظرون إلى الأمام أو المستقبل، أو يتعمقون في الحاضر، فهم مشدودون أبدًا إلى الخلف، سجنوا أنفسهم داخل قضبان التراث، ولا يتصورون العيش في الحاضر أو المستقبل، إلا باجترار التراث كله، بجميع جزئياته وتفاصيله.

لكن الإشكالية الكبرى لهذا الاتجاه ليست فقط في تقديسه للتراث فحسب بل أضف إلى ذلك •محاولته الإجابة عن إشكالات اليوم وحاجياته بحلول العصور الماضية التي استجابت لتحدياتها وفق قراءتها ووفق

(١) «أزمة المنهج في فهم التراث»، (ص: ١١).

**ظروفها التاريخية؛ فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن تنسحب هذه الحلول على عصرنا الحاضر، كذلك ثمة ملاحظة على كثير من فصائل هذا الفريق وأفراده أنهم يحرصون على أن يظهروا أنفسهم ويقدموها للناس على أنهم الناطق الرسمي باسم الإسلام"[١].**

**ومن سمات هؤلاء:**

**(أ) أنهم يضفون لونًا من القداسة على التراث كله؛ فهو كله خير، كله صواب، مع أن الدراسة المنصفة للتراث تؤكد أنه لا يخلو من مشكلات، وسوء ممارسات، وخطأ في الآراء والأقوال.**

**ويمكن أن نقول بوضوح "إنَّ نقل القدسية إلى فهوم البشر أشاع جوًّا ومناخًا من التخويف والإرهاب الفكري في أثناء التعامل مع التراث، جعل الخوف من الخطإ في حضرة المقدس يشل حركة العقل، ويحول دون الممارسة والتعامل مع التراث، وحسن توظيفه، على الرغم من أن الخطأ حالة صحية، وأنه أحد أدلة الصواب، كما أنه يعطي القدرة على الموازنة والمناقشة والترجيح والاجتهاد والإضافة والحذف"[٢].**

**وهذه الحالة من القداسة أدت إلى لون من الانغلاق والانكفاء الفكري، سعى بدوره إلى الاحتفاظ بالتراث من أن تمتد إليه يد العبث على حد زعم هؤلاء.**

---

(١) «إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات»، (ص: ٦٢)، ط: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط: الأولى ١٤١٢هـ-١٩٩١م، بتصرف.

(٢) «الوراثة الحضارية» أ.د: عمر عبيد حسنة، (ص: ١٤٧)، الناشر: المكتب الإسلامي- بيروت، ط: الأولى ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م، بتصرف.

**(ب) يسرفون في رد كل جديد إلى قديم التراث، وإن لم يقم على ذلك دليل وبرهان.**

**(ج) يعتبرون كل زمن شرًّا مما قبله، إلى أن تقوم الساعة؛ بناءً على ما فهموه من ظواهر بعض الأحاديث التي يفهمونها فهمًا حرفيًّا رغم مخالفتها لنصوص أخرى وللواقع التاريخي[1].**

**(د) يتعلقون بالصورة والشكل عند السلف، لا بالروح والجوهر، وبأعمال الجوارح لا بأعمال القلوب، وبالآداب الظاهرة، لا بالعبادات الباطنة؛ فأكبر همه تقصير الثوب، وإطالة اللحية، والأكل باليد لا بالملعقة، والأخذ بالأقوال الجزئية للسلف، لا بمنهج الاجتهاد والتفكير عندهم؛ فهؤلاء انتهى بهم فهمهم السقيم إلى الوقوف عند صورة الدين لا حقيقته، وشكله لا جوهره وتمسكوا بظواهر النصوص وحرفيتها، لا بمقاصدها وأهدافها[2].**

**بل إن الشيء الخطير أنهم قد يصل لديهم الأمر إلى "افتراض العصمة للتراث"[3].**

## ٢- عدم وجود التشخيص والتحليل الدقيق

**إن من معوقات مراجعة التراث عدم وجود التشخيص والتحليل الدقيق، ونعني بذلك عدم وجود تحليل وتفاصيل دقيقة عن أسباب ترديناوتقدم غيرنا، وهل تراثنا سبب في هذا التردي السحيق، وهل نحن بحاجة**

---

(١) «أزمة المنهج في فهم التراث»، (ص: ١٢).

(٢) «المرجع السابق»، نفسه.

(٣) «إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات»، (ص: ٧٢).

إلى ثورة تصحيح عامة وشاملة، في الوقت الذي كان التصحيح والتشخيص دائمًا عامًّا لايضع أيدينا على مكمن الداء

وبعبارة أ.د: طه العلواني- رحمه الله-، في تحليله لهذه الأزمة، يقول: "كثيرًا ما تحال هذه الأمور وأسباب التردّي والانهزام إلى عموميَّات مثل الانحراف عن الكتاب والسنَّة، والانحراف عن سيرة الصدر الأول وهكذا، وهذا صحيح، ولكنه صحيح على الجملة في عمومياتها، وفرق كبير بين أن نحلل الأمر إلى شيء عام، ونترك الناس يحملون العام على ما يريدون، وبين أن نضع أيديهم على تفاصيل نرجعها إلى ذلك العام"[1].

ثم يضرب العلواني- رحمه الله- مثالًا على ذلك بكتاب تاج الدين السبكي: (معيد النعم ومبيد النقم) يقول: الكتاب يوضح طرائق استعادة النعمة بعد زوالها، وكيفية الحفاظ عليها، وقدم شرحًا نظريًّا لأمور ثلاثة يستعيد بها المرء ما ضيع من نعمة، ثم أتبع ذلك بشرح تطبيقي مطول عبر أمثلة كثيرة شملت شرائح المجتمع المختلفة، ثم حث الكتاب على التزام الأخلاق الحميدة العملية، والواجب في كل وظيفة ومهنة وتفصيل ذلك وتعداده، دون الاقتصار على الأخلاق العامة، كالتزام الأمانة والإخلاص، وربط ذلك بالواجب الديني، كي يكون على العامل رقيبًا لا يغفل» ثم قال: فهذا هو النموذج الذي يساعد على عملية النهوض، أما أن تحال الأزمات إلى أمور كلية، وربما غيبية فهذه تزيد الأزمة ضبابًا، وهي عدم وضوح الرؤية، ومن ثم عدم القدرة على كشف الأزمات فضلًا

(1) «قضايا إسلامية معاصرة»، (ص: ٦٨).

عن تحليلها[1].

## ٣- ضعف مَلَكة صناعة نقد الآثار والأفكار وصياغتها

كان نقد الأخبار والأفكار ومذاهب الطوائف والرجال علمًا قائمًا عند المتقدمين رائجة بضاعته بين أهل الحديث، وضربوا بسهم وافر في رد الأباطيل والأهواء المحدثة, فلم يُرج في زمانهم الدخيل من الأفكار أو الزائف من الآثار.

بل كانت كلما علت رؤوس أهل البدع في أيامهم، قمعوها بالعلم؛ فصانوا المعرفة الإسلامية من الدس والعبث[2]، حتى قال الإمام الشافعي: "لولا أهل المحابر لخطبت الزنادقة على المنابر"[3].

فقد كانت أعلام السنة منشورة، وألوية أهل البدع ورؤسهم منكسة، أيام كان أهل الحديث أمة ظاهرة، وكانت رهافة الحس إزاء البدعة حاضرة، مع نباهة الفكر والتيقظ، والولع بهذا الشأن بين أهل العلم، فلما تناقص هذا العلم وتضاءل، خبت وكسدت صناعته بتناقض علمائه، فاستشرت الأهواء بين سبايا المذاهب، وعلا شأن الرؤوس الجهال بين العوام، وحلت

---

(١) ينظر: «المرجع السابق» نفسه، بتصرف.

(٢) ينظر: «منهج قراءة التراث الإسلامي بين تأصيل العالمين وانتحال المبطلين» تأليف: الحسن العلمي، (ص: ٦٠)، الناشر: دار الكلمة للنشر والتوزيع- المنصورة، ط: الأولى: ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.

(٣) «سير أعلام النبلاء» تأليف: أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، (١٠/ ٧٠)، المحقق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الناشر : مؤسسة الرسالة، ط: الثالثة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م.

**بلادة الحس والتقليد محل النقد والتمحيص[١].**

**وكان جرَّاء تعطيل حاسة النقد، تعطيل نعمة العقل، ومن ثم «مُني الفكر الإسلامي بكثير من المقلدين الذين لقنوا أتباعهم ومريديهم تقليد الرجال ولقنوهم رسوم التقليد والتسليم، وأجلسوهم على بساط الجهل، حتى عطلوا نعمة العقل، وبذلك ضعفت حاسة النقد، ودخل العقل مرحلة السكون والتسليم.**

**«وقد دخل على التراث من هذه الجهة الغث المهين في العلوم النقلية كالتفسير، والحديث، والتاريخ، وأصول الدين، على سبيل المثال: تفسير أبي عبد الرحمن السلمي، وعرائس المجالس للنيسابوري، والتفسير للثعلبي، هي كتب مشحونة بالإسرائيليات، وبستان العارفين للسمرقندي، واللمع لأبي نصر السراج، وغيرها كثير»[٢].**

**أعاقت هذه الكتب وأضرابها وهذه الأفكار وأشباهها العقل المسلم، وعطلت ملكة النقد عنده، وصار لا يمكنه إلا الإذعان والتسليم والانقياد الأعمى لمقولات السابقين وأفكارهم، وكأن هؤلاء فوق النقد وأنهم يملكون الحقيقة المطلقة، كل هذا أورث الأمة تخلفًا في ميدان الفكر والحضارة.**

---

(١) ينظر: «منهج قراءة التراث الإسلامي بين تأصيل العالمين وانتحال المبطلين»، (ص: ٦٠).

(٢) «منهج قراءة التراث الإسلامي بين تأصيل العالمين وانتحال المبطلين»، (ص: ٦١).

## ٤- ارتباط مفهوم المراجعة بالانحراف عن منهج الإسلام القويم

ارتبط مفهوم مراجعة التراث وتنقيته بالانحراف عن الإسلام، بل والاعتقاد أن هذا تخريب للتراث وليس تنقية، وارتبطت فكرة المراجعة بالعلمنة؛ فكل من أراد مراجعة التراث فهو علماني ومخرب لتراثنا، وقد يظن البعض أن نفي القداسة عن التراث يعني الاستهانة والاستخفاف به وعدم احترامه، ويمكن الرد بأن احترام التراث هو المقدِّمة الضروريَّة لإمكانية تحقيق مراجعة حقيقيَّة وسويَّة، •ومن هنا نجد أنَّ القدرة على مراجعة التراث تكون لدى أولئك الذين يؤمنون بالمقدَّس، ويتَّسمون بالصدقيَّة العلميَّة، والانتماء العميق لجذور الأمة وتراثها، وهذا يفرض علينا مراجعة «التراث الإسلاميّ» مراجعة نقديَّة تبدأ بمحاكمة ذلك التراث وعرضه على كليَّات القرآن المجيد ومقاصده العليا، وكذلك صحيح السنة النبوية الثابتة؛ لاستبعاد مَا يتعارض وقيم القرآن المجيد وقيم السنة النبوية المطهرة»[1].

## ٥- الانبهار بتيار الحداثة والثورة على القديم

ابتلي التراث الإسلامي بأيدٍ عابثة وعقول مغربة من أبناء هذه الأمة إبان ظهور عصر النهضة، إثر ما ظهر في مطلع عصر النهضة من نزعات التغريب والحداثة، التي بدأت تغزو العالم الإسلامي يومئذ؛ حيث تأثر بها كثير من المثقفين العرب وبعض المنبهرين بمدنية الغرب، فارتموا في أحضانها ومرقوا عن الجادة، بدافع الجموح والانبهار بالمدنية الغربية

(١) «قضايا إسلامية معاصرة»، (ص: ٦٨).

**الحديثة.**

**وقد امتدت أيدي هؤلاء إلى التراث الإسلامي بمنطق التجني لا التبني، وعملت على مسخه وتسخيره للإزراء بهذه الأمة وخدمة أعدائها، وكان لجموح هؤلاء ردة فعل زادت من حدة تيار الجمود والتقليد ضد هجمة التغريب والحداثة على التراث(١).**

**«ولقد اعتمدت النخب السياسية في المجتمعات الإسلامية المعاصرة نموذج الحداثة الغربية؛ لأسباب عملية تتعلق بالسعي لردم البون الهائل وتقليل الفجوة الشاسعة والهوة السحيقة في القدرات المعرفية والصناعية والتنظيمية بين المجتمع المسلم والغربي.**

**وعكفت النخب الثقافية على إعادة تشكيل البنية الاجتماعية والمحتوى الثقافي؛ وذلك باقتباس المؤسسات والممارسات الغربية واعتبار ذلك خطوة أساسية لتحديث المجتمعات المسلمة وتحقيق نهضتها، لم تُبد النخب السياسية في العالم الإسلامي اهتمامًا بالحوار والعمل المؤسسي، وتجاهلت كليًّا الأساس القيمي والأخلاقي الضروري لفاعلية الثقافة المستوردة والمستعارة، بل اعتمدت السلطة والقرارات المركزية وسيلة لفرض رؤاها، ونقل التجربة الغربية الحديثة إلى العالم الإسلامي»(٢).**

**وهنا نقول إننا استنسخنا النتيجة دون وعي بالتجربة.. إن المطالبة**

---

(١) ينظر: «منهج قراءة التراث الإسلامي بين تأصيل العالمين وانتحال المبطلين»، (ص: ٦٣).

(٢) «الفكر والنهوض، قراءة في صيرورة الفكر وأسس النهوض الحضاري» د: لؤي صافي، (ص: ٥٤٥)، الناشر: دار الفكر المعاصر– بيروت، ط: الأولى ١٤٤٠هـ– ٢٠١٨م.

**بالإفادة من تجارب الأمم الأخرى تعني الوعي الكامل بتجاربها في مجالات النجاح أو الإخفاق، ولا تعني أن تُنقل نتائج تجربتها كما هي.. فهذا هو التقليد الذي لا يثمر أبدًا، بل إنه يقود إلى مزيد من تراكم الأخطاء واستعصاء معالجتها** [١].

**كان على رأس هذا التيار أ.د: طه حسين عميد الأدب العربي الذي ألَّف كتاب «مستقبل الثقافة في مصر » ودعا فيه إلى الحداثة وإلى التحرر من سلطان التراث؛ حيث قال: "إن سبيل النهضة واضحة بيّنة مستقيمة، ليس فيها اعوجاج ولا التواء، وهي أن نسير سيرة الأوروبيين، ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادًا، ولنكون لهم شركاء لهم في الحضارة خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يُحب منها وما يُكره، وما يُحمد منها وما يُعاب"** [٢].

**وها نحن أولاء بعد مرور قرن من الزمان أو يزيد لم نجنِ سوى ويلات السير في هذه السبيل الوعرة المليئة بالاعوجاج والالتواءات، فلم نصر لهم أندادًا ولا شركاء، وإنما صرنا لهم أذنابًا وأتباعًا، وجنينا شر هذه الحضارة وضررها، في حين ضنوا علينا بخيرها ونفعها، وتجرعنا مرارتها العلقم، ولم تستطع قطرات العسل أن تتعادل مع تلك المرارة التي صُبت في حلوقنا، وقام الذي يُكره والذي يُعاب مقام الذي يُحب والذي يُحمد، وصار له السلطان الأقوى والنصيب الوافر الأوفى.**

---

(١) ينظر: «قراءة في خطاب النهضة، إشكالات وتساؤلات» د: محمد الفقيه، (ص: ١٢٨)، الناشر: مركز التأصيل للدراسات والبحوث، ط: الأولى ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م.

(٢) «مستقبل الثقافة في مصر» د: طه حسين، (ص:٤١)، دراسة وتقديم د: أحمد زكريا الشلق، الناشر: الهيئة العامة المصرية للكتاب ٢٠١٣م.

إن الاقتباس من الغرب والتحاكم إليه لا يكون إلا بعد دراسة المبادئ والأسس التي قامت عليها النهضة، وكذلك دراسة مجتمعنا وأزماته وما يعاني منه، ثم ننظر هل لهذا من حل في هذه التجربة النهضوية، ودون ذلك نصبح مقلدين تقليد الأعمى، فلا يمكن أن ننبذ تراثنا ونغض الطرف عنه فقط؛ لأننا رأينا الحداثة والنهضة عند غيرنا وفي غير تراثنا.

٦- **افتراض الماضي خير من الحاضر**:

أصبح لدينا فكر أن الماضي أفضل من الحاضر؛ فالماضي محكوم عليه بالبراءة والأفضليّة دائمًا، ومحكوم عليه بأنه خير من الحاضر، والسبب في ذلك التقليد حجة شاعت في ثقافتنا، وترسّخت في نفوسنا فكرة، (ما ترك السابق للاحق شيئًا)، (ليس بالإمكان أبدع مما كان)، (ما ترك الأولون للآخرين شيئًا)، (الخير كل الخير في الاتباع، والشر كل الشر في الابتداع)، هذه عبارات قالها علماء السلف -ومنهم: أبو حامد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ)- في مناسبات معيّنة، لكن تحوّلت إلى جزء من ثقافتنا، وهذه نزعة أصبحت جزءًا من الحواجز والحجب الكثيرة التي لا تسمح بعمليّة نقد لتراثنا الإسلامي ومراجعته، وكانت دعوة هؤلاء تحبذ العودة بالحاضر والمستقبل كي يصب ثانية في قوالب الماضي[١].

ويمكن الرد على هؤلاء بدليل يؤيد زعمهم إذا افترضنا أن الماضي خير كله، فإننا غير مسئولين عما أنتجوا, قال تعالى: «تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ»[٢] وتُحمل

(١) ينظر : «قضايا إسلامية معاصرة»، (ص: ٦٤).

(٢) [البقرة: ١٣٤].

**الآية على غير معناها[1].**

**والحقيقة أن ادعاء الماضي خير من الحاضر هو ذوبان في الماضي، وذوبان في الآخر من جهة ثانية، •الذوبان في الماضي ليس كما يظن غالبيتنا احترامًا للأسلاف؛ لأن هؤلاء الأسلاف لم يذوبوا في ماضيهم، وإلا ما أبدعوا المنجزات العظيمة التي نتغنى بها، بعض الأسلاف- لا كلهم- كانوا عظامًا حقًّا؛ لأنهم غيروا الموازين والتقاليد والقيم، لا لأنهم •تغنوا" بماضٍ سابق"[2].**

**•الذوبان في الماضي هو الكسل العقلي؛ فالانحطاط هو بالضبط •خيانة" لأعظم ما في الماضي، إن هذا الأعظم كان كذلك؛ لأنه لم يكن محاكاة لماضيه، وإنما كان كشفًا وفتحًا وثورةً، وقد دفع الأسلاف ثمن فتوحاتهم وكشوفهم غاليًا، أحيانًا لدرجة الشهادة، أما نحن الذين ينسب البعض منا نفسه للسلف الصالح، فإنه يرتكب تزويرًا حقيقيًّا في شهادة ميلاده؛ لأن الاكتفاء •بتمجيد" هذا السلف العظيم هو بمثابة ادعاء البنوة لسرقة التزكية، فلا إضافة جديدة بمستوى تلك •العظمة" تبرر النسب وتعزز الميراث وتحمي الرصيد"[3].**

---

(1) ينظر: «التراث والمستقبل» تأليف د: محمد عمارة، (ص: ١٥٢).

(2) «أقواس الهزيمة» تأليف د: غالي شكري، (ص: ٢٨)، ط: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع- القاهرة، ط: الأولى ١٩٩٠م.

(3) «المرجع السابق» نفسه.

## ٧- المحافظة على مكانة العلماء

إن من العوامل التي حالت بيننا وبين مراجعة التراث أننا ورثنا تقاليد ذات حساسيَّات شديدة لأية مراجعات لآراء ومذاهب تكلّمت بها شخصيّات كُرمت مكانتها التاريخيّة وكُرست مشروعيَّتها في العقول والقلوب والنفوس، وذلك راجع لإصابة فكريّة قديمة كانت تخلط بين الرأي وقائله؛ فليس هناك تمييز بين الرأي من حيث هو رأي وبين قائله، وإلا فانظر إلى تلامذة الفقهاء أنفسهم، كان أبو يوسف ومحمد كثيرًا ما يردَّان آراء أبي حنيفة، والآن لو فتحت أي كتاب فقهي لوجدت آراء لأصحاب أبي حنيفة تخالف آراءه، ولوجدت آراء لأصحاب الشافعي تخالف الشافعي، وآراء لأصحاب أحمد تخالف أحمد، لم يكونوا يرون في الأمر شيئًا؛ لأن النقد كان قضيّة معرفيّة وأداة معرفيّة وليس أداة انتقاص[١].

والصحابة كانوا يراجعون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفي ذلك قصص كثيرة، ومن ذلك: يا رسول الله أهو الوحي أم الرأي والحرب والمكيدة؟ عندنا تراث هائل في هذا الموضوع، نحن أهل التراث ينبغي أن لا ننتظر أن يأتي مستشرق أو علماني أو عدو حاقد لينقد تراثنا، لكن ينبغي أن نراجع تراثنا فنحن أولى بذلك[٢].

•وقد كان للسلف في صناعة نقد المعارف والآثار قدم راسخة ويد عليا في هذا الباب، فقد صنف الخطيب كتابًا في الرد على البخاري ومسلم في تواريخ الرجال أسماه «موضع أوهام الجمع والتفريق»، ومما قال فيه:

---

(١) ينظر: «قضايا إسلامية معاصرة»، (ص:٦٩).

(٢) ينظر: «المرجع السابق» نفسه.

**وَلَعَلَّ بعض من ينظر فِيمَا سطرناه وَيقف على مَا لكتابنا هَذَا ضمناه يلْحق سيئ الظَّن بِنَا وَيرى أَنا عمدنا لِلطَّعْنِ على من تقدمنا وَإِظْهَار الْعَيْب لكبراء شُيُوخنَا وعلماء سلفنا، وأنى يكون ذَلِك وبهم ذكرنَا وبشعاع ضيائهم تبصرنا وباقتفائنا وَاضح رسومهم تميزنا، وبسلوك سبيلهم عَن الهمج تحيزنا، وَمَا مثلهم ومثلنا إِلَّا مَا ذكر أَبُو عَمْرو بن الْعَلَاء: (مَا نَحن فِيمَن مضى إِلَّا كبقل فِي أصُول نخل طوال)"[1].**

**ثم قال: "وَلما جعل الله تَعَالَى فِي الْخلق أعلامًا، وَنصب لكل قوم إِمَامًا لزم المهتدين بمبين أنوارهم والقائمين بِالْحَقِّ فِي اقتفاء آثَارهم، مِمَّن رزق الْبَحْث والفهم وإنعام النّظر فِي الْعلم بَيَان مَا أهملوا وتسديد مَا أغفلوا؛ إِذْ لم يَكُونُوا معصومين من الزلل وَلَا آمِنين من مقارفة الْخَطَإ والخطل وَذَلِكَ حق الْعَالم على المتعلم وواجب على التَّالِي للمتقدم"[2].**

**قال الإمام الذهبي: "وما زال العلماء قديمًا وحديثًا يرد بعضهم على بعض في البحث، وفي التواليف، وبمثل ذلك يتفقه العالم، وتتبرهن له المشكلات، ولكن في زماننا قد يُعاقب الفقيه إذا اعتنى بذلك لسوء نيته، ولطلبه للظهور، والتكثر، فيقوم عليه قضاة وأضداد، نسأل الله حسن الخاتمة، وإخلاص العمل"[3].**

---

(1) «موضح أوهام الجمع والتفريق» تأليف: أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي، (١/ ١٢)، تحقيق: د. عبد المعطي أمين قلعجي، الناشر: دار المعرفة– بيروت، ط: الأولى، ١٤٠٧هـ.

(2) «موضح أوهام الجمع والتفريق»، (١/ ١٣).

(3) «سير أعلام النبلاء»، (١٢/ ٥٠٠).

ومن ثَمَّ فدراسة التراث وغربلته ونقده أمر ضروري، ولازم من لوازم حضارتنا، سمة تميزت بها حضارتنا الإسلامية منذ فجر التاريخ، لكن مُني عصرنا الحاضر عندما حصر النقد في معنى السبّ والهجو، فكما أن من معاني النقد إظهار عيوب الشيء، فمن معانيه أيضًا، إظهار محاسن الشي، وهذه ضرورة؛ لأن النقد تقويم للشيء حتى نستطيع البناء عليه.

## المبحث السابع: ضوابط التعامل مع التراث

لعلنا قد حططنا رحالنا عند نقطة لها أهميتها وضرورتها، ألا وهي كيف نتعامل مع تراثنا الإسلامي معاملة علمية منهجية؟

إن قضية التراث ستبقى القضية المحورية المطروحة سواء في كيفيات تعاملنا مع مستجدات العصر، أو مع الواقع، أو استشراف المستقبل، أو مع الآخر الوافد، كما أن مسألة التراث لا تزال تحتل موقعًا متميزًا من الجدل والاجتهاد الفكري نظرًا للأزمات والتحولات التي تمر بها المجتمعات الإسلامية، الأمر الذي يدفع المفكرين بشكل طبيعي للبحث عن خريطة فكرية، ودليل تعامل، ونماذج من العصور والحالات المتشابهة تمكننا من التعامل مع هذه الأزمات من خلال وضع منهج للتعامل مع التراث، حتى قال أحد المفكرين:

•ودون التراث، هذه الذاكرة التاريخية للأمة، سوف تُعَمِّي علينا الأبواب وطرائق التعامل»[1]. ومن هنا، فإننا نؤكد ضرورة التعامل المنهجي مع الموروث؛ بحيث تتحول عملية استقرائه إلى عملية منهجية وبضوابط محددة وواضحة للإفادة منه في بناء وثبة حضارية فاعلة، ولعلنا في هذه الصفحات القليلة القادمة نضع بعض الضوابط التي يمكن إعمالها في التعامل مع التراث، وهي على النحو التالي.

### الضابط الأول: التمكن من اللغة العربية

لا شك أنَّ اللُّغة العربية من أهم مظاهر الحضارة، وأقوى الصلات التي تربط حاضر الأُمّة بتُرَاثها الغابر، وماضيها المجيد بوصفها واسطة للتَّعبير

(1) «الوراثة الحضارية» أ.د: عمر عبيد حسنة، (ص: ١٤٨- ١٤٩).

**عن التُّرَاث، وجُزءًا مُهِمًّا من المُمتلكات الثقافيَّة والفكريّة للشُّعُوب الأصيلة؛ فهي التي حفظت ونقلت كثيرًا من أشكال التَّعبير الثقافيّ كالأساطير، والمعتقدات، والطقوس، والقصص، والحكايات الشعبية، وأشكال المعارف، والمهارات التقليدية المختلفة وتُشكِّل اللُّغة الْعَرَبيَّة أهمِّية خاصة للتُّرَاث الثقافيّ الإسلامي، والحضارة الْعَرَبيَّة العريقة بوصفها إحدى مقومات الهُوَيَّة الْعَرَبيَّة؛ لما تؤديه من دَورٍ ريادي على مرِّ العصور في الحفاظ على مقومات وهُوية وتراث الأُمّة، وبوصفها وسيلة أكثر تأثيرًا لحفظ التُّرَاث الثقافيّ العربيّ من الاِندِثار والزوال، وأداة لنقله، والتعريف به على أوسع نطاق، وتمريره للأجيال القادمة؛ ولذلك من الأوليات التي تتطلبها منهاجية التعامل مع التراث، التمكن من اللغة العربية والتمكين لها؛ حيث تبدأ إشكالية التعامل مع التراث عادة ببداية لغوية تدور حول تفسير النصوص والدلالة اللغوية لألفاظ معينة لها معناها، سواء في الأصل التشريعي في القرآن والسنة، أو في الاستخدام الحركي؛ ولذلك أهميته في بناء المفاهيم المتعلقة بألفاظ لها استخدامها في مجال التراث؛ حيث ينبغي عدم الاكتفاء بالدلالة المشهورة والمعروفة للفظة من الألفاظ، وإنما يلزم التعرف على تاريخ اللفظة وتطور دلالتها[1].**

---

([1]) ينظر: بحث: «إشكالية التراث والعلوم السياسية» د: نيفين عبد الخالق مصطفى، (ص: ٧٥)، مجلة المسلم المعاصر، مجلد (١١)، عدد: (٤٣) رجب– إبريل، الناشر: جمعية المسلم المعاصر– مصر ١٩٨٥م، بتصرف

## الضابط الثاني: توثيق التراث

ونعني بتوثيق التراث "صدق نسبة الكتاب إلى صاحبه، ونسبة النصوص إلى قائلها، وعدم التصرف منه في أي نص من هذه النصوص حتى لا يقلب المعنى رأسًا على عقب، ويُفهم من هذا أنه مراد المؤلف ونصه"[1].

إن توثيق النصوص هو الخطوة الأولى في منهجية التقويم التراث من أجل توظيفه؛ إذ قبل الحديث عن توظيفه وتجديده، لا بد من معرفة مدى سلامته وصحته، وهذا التوثيق لا بد أن يستند إلى قواعد الإثبات، وضوابط نقل الأخبار وفحصها من حيث القبول والرد[2]؛ لأن هذا التراث في نهاية المطاف يبقى أقوالًا وفهومًا واجتهادات بشرية، وهذه لا يمكن الاعتماد عليها والوثوق بها إلا إذا صحت مصدريتها وعُرف قائلوها، وإن لم يكن ذلك، تبقى جميع مضامينها وقيمها الفكرية مجرد تصورات لا تعدو أن تكون نسيج خيال، وهذه قاعدة من قواعد المنهج العلمي الإسلامي الذي اعتمده علماء الإسلام في مختلف العلوم الشرعية، ومقتضى هذه القاعدة هي أن لا يكون هناك استنباط من نص حتى يَثْبُت، وعملية توثيق النصوص تشكل أساس عملية ضبط التراث وتجديده؛ إذ لا بد- وقبل أن نقوم بهذا العمل- أن ندرك مصداقية هذا التراث الذي نقل إلينا عبر العصور من الزمان، ولا يتأتى هذا إلا بالتوثيق الذي يهدف من ورائه

---

(1) «تحقيق النصوص ونشرها» الشيخ: عبد السلام محمد هارون (ص: ٤٥)، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط السابعة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

(٢) ينظر: بحث محكم: «أزمة المنهج في فهم التراث» إعداد: الحسن حما، (ص: ١٩).

**البحث العلمي داخل النسق الفكري للتراث الإسلامي؛ معرفة التراث واستخلاص مضامينه العلمية، وقيمه الدينية والفكرية[١].**

## الضابط الثالث: مبدأ التكامل المعرفي[٢] للتراث

**لكي يتم إعمال مبدإ التكامل المعرفي عند دراسة التراث الإسلامي والسعي للاستفادة منه، لا بد أن يؤخذ بالحسبان "أن المعرفة البشرية معرفة نامية ومتجددة لا تعرف الثبات"[٣].**

**ولا يخفي على ذي لب أن إعمال مبدإ التكامل المعرفي في قراءة التراث الإسلامي في مراحله الزمنية المتتابعة يقتضي ملاحظة المدى الزمني الذي أنجز فيه مادة التراث عبر أكثر من عشرة قرون[٤]، وكانت أنواع الإنجازات فيه مختلفة من عصر إلى آخر؛ فعلي سبيل المثال: حالة التعليم التي تحدث عنها التراث في عهد التابعين وتابعيهم، لم تبق كما كانت عليه أيام الصحابة، وتراث العصر الأموي يعرض لنا ممارسات**

---

(١) ينظر: «المرجع السابق»، (ص: ٢٠).

(٢) مصطلح التكامل المعرفي: تكامل مصدري المعرفة، وهما الوحي والوجود، وتكامل أداتي المعرفة، وهما العقل والحس، وتكامل مصدري المعرفة وأداتيها. ينظر: «التكامل المعرفي وأثره في التعليم الجامعي وضرورته الحضارية» إعداد: مجموعه من الباحثين، (ص:٥٦، ٢٢٨)، تحرير: رائد عكاشة، ط: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠١٢م.

(٣) «التراث التربوي الإسلامي»، (١/ ٤٨٢).

(٤) على اعتبار أن التراث الإسلامي هو: ما كتب قبل الصدمة الحضارية التي واجهتها الأمة الإسلامية عند بدء تفاعلها مع الغرب الاستعماري منذ مطلع القرن التاسع عشر.

جديدة لم تُعرف من قبل، وكذلك الأمر في العصور اللاحقة، هذا التفاوت في حالة التعليم ظهر في درجة الاعتماد على التدوين والكتابة، وفي اختلاف نوعية المعلمين، وأماكن التعليم، وتمويل التعليم، ومؤسسات التعليم، وآداب التعليم، ومناهج التعليم، والمدارس أو الاتجاهات الفقهية والفكرية التي مارست التعليم، وهكذا، وقد توزعت مادة التراث الإسلامي على كتُب متنوعة تنتسب إلى علوم مختلفة؛ ولذلك تقتضي الرؤيا التكاملية في قراءة التراث الإسلامي وفهمه وتقويمه أن تشمل ما كتب عن التعليم في كتب العلوم جميعًا على اختلافها وتنوعها[1].

يقول الفيلسوف أ.د: طه عبد الرحمن: إن البناء التداخلي التكاملي في قراءة التراث يتحدد في اعتبار العلوم في التراث العربي الإسلامي وحدة متكاملة ومنسجمة، وهو ما يعني أن النظرة التكاملية في العلوم تعني: «النظرة التي تتجه إلى البحث في التراث بوصفه وحدة معرفية متكاملة ومنسجمة، ومتجانسة لا تقبل التفرقة بين أجزائها، إضافة إلى أنها وحدة معرفية مستقلة لا تقبل التبعية لغيرها [2].

وعاب أ.د: طه عبد الرحمن على أصحاب المناهج التجزيئية التي كانت تسعى إلى قراءة التراث بوصفه قطعًا مجزأة ومعارف مقسمة لا تحمل التداخل ولا التكامل ولا الانسجام في مكوناتها ولا في عناصرها،

---

([1]) يُنظر: «التراث التربوي الإسلامي»، (١/ ٤٨١).

([2]) ينظر: «حوارات من أجل المستقبل» د: طه عبد الرحمن، (ص: ٢٩)، الناشر: الشبكة العربية للأبحاث والنشر – بيروت، ط: الأولى ٢٠١١م

**علمًا أن القصد في المناهج التجزيئية هو الوصول إلى نتيجة المفاضلة بتفضيل بعض المعارف على حساب البعض الآخر [١].**

**•كذلك اشتمل التراث على جوانب متعددة، يتعامل بعض المثقفين معها بصورة جزئية اقتصروا فيها:**

**١- على الفكر فقط.**

**٢- أو على النص فقط.**

**٣- أو على جانبي العرفان والوجدان فقط.**

**وحقيقة التراث أنه مشتمل على كل هذه الجوانب، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن بعضهم قد اقتصر في دراسة التراث أو بعض ظواهره على مصدر دون مصدر؛ فمثلًا لا يجوز الاقتصار على كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني في تصوير العصر العباسي على أنه عصر فجور وخمر، كما لا يجوز الرجوع إلى كتاب: «حلية الأولياء» لأبي نعيم الأصبهاني أيضًا للحكم على ذات العصر بأنه عصر تقوى وورع وزهد وجهاد، فلا بد أن تدرس الظاهرة بشيء من التكامل سواء في جوانبها أو مصادرها»[٢].**

---

(١) ينظر: «تجديد المنهج في تقويم التراث»، (ص:٢٣).

(٢) «الطريق إلى التراث الإسلامي»، (ص: ٥١).

## الضابط الرابع: فهم التراث في ضوء سياقه وملابساته الزمانية والمكانية

إن من الضوابط المنهجية التي لا ينبغي أن يغفل عنها دارس التراث الإسلامي فهمَ التراث في ضوء سياقه وملابساته المكانية والزمانية؛ إذ إنه من الأمور المهمة التي يتوصل من خلالها العلماء والباحثون إلى فهم التراث؛ فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته، ولا يتأتى له بلوغ الفهم السديد والاستدلال الجيد المفيد؛ إذ لا بُدَّ أن يُرْبَطَ الكلام بسياقه، ولا يُقْطَع عما قبله، وعما بعده؛ لأن السياق من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، وفي هذا الصدد يقول الإمام العز بن عبد السلام- رحمه الله-:

•السياق مرشد إلى تَبَيُّن المجملات، وترجيح المحتملات، وتقرير الواضحات، وكل ذلك بعُرف الاستعمال؛ فكل صفة وقعت في سياق المدح كانت مدحًا، وكل صفة وقعت في سياق الذم كانت ذمًّا، فما كان مدحًا بالوضع، فوقع في سياق الذم صار ذمًّا واستهزاءً وتهكمًا بعرف الاستعمال، مثاله قول الله تعالى: {ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ}[1]؛ أي: الذليل المهان؛ لوقوع ذلك في سياق الذم، وكذلك قول قوم شعيب {إِنَّكَ

(1) [الدخان: ٤٩].

**لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ}[1]؛ أي: السفيه الجاهل لوقوعه في سياق الإنكار عليه»[2].**

**«فالتراث الإسلامي ناشئ من تفاعل المسلمين مع ظروفهم الحياتية، وهذه الظروف تتغير بتغير الزمن، فيكون لكل ظرف منها اعتباراته الخاصة في التفاعل مع الوحي فهمًا وتنزيلًا، ومن ذلك ينشأ التراث لصيقًا بالتاريخ وأحداثه»[3].**

**ولذلك لا ينبغي فصل التراث عن سياقه وملابساته الزمانية والمكانية، وقد بيّن ابن القيم –رحمه الله– قائلًا: "فصل في تغيير الفتوى، واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد، والشريعة مبنية على مصالح العباد، وهذا فصل عظيم النفع جدًا وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة أوجب من الحرج والمشقّة وتكليف ما لا سبيل إليه ما يُعلم أن الشريعة الباهرة التي في أعلى رتب المصالح لا تأتي به»[4].**

---

(1) [هود: ٨٧].

(2) «الإمام في بيان أدلة الأحكام» تأليف: عز الدين بن عبد السلام: (ص: ١٥٩، ١٦٠)، تحقيق: رضوان مختار، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط: الأولى: ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

(3) «مقاربات في قراءة التراث»، (ص: ٦٨).

(4) «إعلام الموقعين عن رب العالمين» تأليف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، (٣/ ١١)، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى، ١٤١١هـ – ١٩٩١م.

فالظروف الزمنية إذن لها مدخل في فهم بعض أحكام الدين وتطبيقها؛ بحيث يؤدي تبدّل تلك الظروف إلى التغاير في ذلك البعض من التطبيقات والأحكام.

وهذا الفهم الذي نسعى إليه من خلال هذا الضابط يعد مبدأً تقويميًا في التعامل مع التراث لمبررات عدة، بعضها يعود إلى ترشيد فهمه ليحصل به الفهم الصحيح، وهو الشرط الأساسي للتقويم والتوظيف، وبعضها يعود إلى ترشيد التخيّر والانتخاب؛ لما يقع توظيفه من التراث في تنمية الحياة الإسلامية الراهنة.

## أولًا: ترشيد الفهم

• إن كل اجتهاد سابق بما أنه نتاج تفاعل مع أحداث الواقع، فينبغي لفهم التراث فهمًا صحيحًا معرفة تلك الأحداث، وأما لو نظرنا في الاجتهاد على صورته التقريرية مجردة دون معرفة الملابسات، فإنه قد يفوتنا الفهم الصحيح لفوات بعض المعطيات التي بَنَى عليها المجتهد اجتهاده"[1].

ومن أمثلة ذلك في التراث الفقهي أن ابن القيم- رحمه الله- أُثر عنه الاجتهاد في اعتبار التطليق بالثلاث في لفظ واحد طلقة واحدة، وكانت الاجتهادات السائدة قبله تعتبر طلاقًا بائنًا، وفهم هذا الاجتهاد لا يتيسر إلا بتأريخه في واقعه الزمني، وهو ما قام به ابن تيمية- رحمه الله- نفسه في تبرير حكمه؛ إذ يقول في ذلك: «فلما تغيّر الزمان، وبَعُدَ العهد بالسّنة وآثار القوم، وقامت سوق التحليل[2] ونفقت في الناس؛ فالواجب

(1) «مقاربات في قراءة التراث»، (ص: ٦٩).

(2) اصطناع زوج لفترة محدودة ليحلل المطَلّقة ثلاثا لزوجها الأول .

أن يرد الأمر إلى ما كان عليه في زمن النبي – ﷺ – وخليفته من الإفتاء بما يعطل سوق التحليل أو يقللها ويخفف شرها»[1]، •فتفشي التحليل وما أفضى إليه من المضار الفردية والاجتماعية هو الحدث الذي بُني عليه هذا الحكم، وتأريخ الحكم به هو الذي يرشِّد فهم هذا الاجتهاد الذي انتهى اليه ابن القيم"[2].

## ثانياً: ترشيد التخيُّر

•ونعني بذلك أن التراث حينما يُعرض مؤرخًا تتوفّر الفرصة للموازنة بين الاجتهاد وبين اعتبار الظرفية (الزمان والمكان والمناسبة) من جهة، فيُلحظ مدى السداد الذي كان في معالجة تلك الاعتبارات، والموازنة بين الاعتبارات الظرفية التي بُنِيَ عليها والاعتبارات الظرفية التي نعيشها اليوم من جهة أخرى، فيلحظ مدى ما يمكن أن يفيد في معالجة هذه الاعتبارات الراهنة، ومن هذا وذلك يتكون أساس تقويمي مهم ينفع في انتخاب وانتقاء الأصلح ليوظف في تنمية الحياة الإسلامية ودفعها في سبيل النهضة.

ولو عرض التراث عرضًا تقريريًا مجردًا عن ملابسات الزمان والمكان، فإن الاجتهادات فيه ستكون مبسوطة على سواء؛ فلا تتبيّن فيها قيمتها بالنسبة لما عالجت من أوضاع، ما لا تتبين قيمتها في مدى ما يمكن أن

(1) «إعلام الموقعين عن رب العالمين»، (٣/ ٤٤).

(2) «مقاربات في قراءة التراث»، (ص: ٧١).

تنفع في معالجة اليوم، وقد ينشأ من ذلك تقوم خطأ، فيُنتخب ما هو غير صالح ويترك ما صالح"[1].

•ولو عدنا إلى التراث الفقهي الإسلامي، في عهد ازدهاره خاصة، لوجدنا المذاهب الفقهية في نشأتها وتطورها، ليست إلا اجتهادات الأئمة في تنزيل الدين على واقع الحياة، بما تقتضيه الظروف المختلفة، زمانًا ومكانًا؛ ولذلك تلونت هذه المذاهب بألوان الأوضاع البشرية في المناطق التي نشأت فيها، رغم أنها تقوم كلها على تنزيل الأوامر الإلهية الثابتة. ويظهر هذا المعنى جليًّا في كتب الفقه للأئمة المجتهدين، وكتب تلاميذهم، قبل القرن الرابع خاصة، كما يظهر أيضًا في كتب النوازل والفتاوى؛ حيث تنطق هذه الكتب بالكيفية التي جرت عليها الملاءمة بين أحكام الدين، وبين أحداث الحياة"[2].

إن من أبرز الأخطاء التي تشيع في التعامل مع الموروث هو اعتباره- من الناحية الزمنية- كتلة واحدة، وهذا خطأ يترتب عليه قصور في النظر إلى التراث عبر السياق المجتمعي والسياق الزمني؛ ولذلك ننبّه إلى عدم اقتلاع الحادثة من سياقها الزمني أو التاريخي، وكذلك البيئي، والحكم عليها لا يكون من خارجها، بل يكون من داخل هذا السياق، وهذا عنصر فاعل ومهم في النظرة الخاطئة للتراث؛ حيث يقوم الباحث بنظرة إلى التراث يُحَكِّم العصر في الحوداث التاريخية التي كان لها طابع خاص وبيئة وسياق مختلفين.

---

([1]) «مقاربات في قراءة التراث»، (ص: ٧٢).

([2]) «في فقه التدين فهمًا وتنزيلا» د: عبد المجيد النجار، ( ١٨/١).

**الضابط الخامس: تنحية المسائل الخلافية التي لا ينبني عليها عمل**

**تمتلئ كتب التراث الإسلامي باختلافات ومسائل تجاوزتها الحياة المعاصرة، فضلًا عن أن هذه الأمور لا ينبني عليها عمل؛ فمن هذا التراث الذي يلزم تجاوزه وعدم العودة إليه تلك "الاختلافات بين المعتزلة والأشاعرة في بعض مسائل العقيدة؛ حيث أوقعت ما أوقعت من جدل طال أمده واستشرى خطره، وقُتل بسببه من قُتل من العلماء وعُذِّب من عُذِّب منهم، وأثار ما أثار من الأحقاد، يقول عنه الشيخ محمد الغزالي: «وقد أنعمت النظر في الخلاف القديم بين فكر السلف والخلف، فوجدته أدنى إلى الخلاف اللفظي... وتوجد اليوم عصابة من المتعالمين تريد أن تسعِّر النار، وأن تصب الزيت في الفرن الذي خمد اشتعاله»[1].**

**كذلك المشكلات التاريخية مثل خلق القرآن أو الصفات وعلاقتها بالذات، هل هي عين أم غير، أم لا عين ولا غير.... إلخ، فينبغي أن تدرس –هذه القضايا– بوصفه تاريخًا للفكر الإسلامي، ولا ننفق الوقت والجهد فيما لا طائل من ورائه، نحن في حاجة إلى هذا الجهد لمواجهة معضلات زماننا.**

**وكذا دراسة العقائد الفلسفية وما يتبعها من شروح وحواش، والمطولات الكلامية وما شابهها، فلم يعد كثير من هذه المباحث يحتاج**

(1) «تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل» الشيخ محمد الغزالي، (ص: ٥٦)، ط: دار الشروق، ط: الخامسة ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

إليها العقل المعاصر أو يستسيغه، ولم تعد تكفي للرد على شبهات الفلسفة الحديثة وما تثيره من مشكلات فكرية.

هذا بالإضافة إلى أن هذه العقائد الفلسفية وتلك المباحث الكلامية- على عمقها وتعقب الذهن في فهمها واستيعابها- لا تُكّون عقيدة، وإنما مهمتها الدفاع عن عقيدة تكونت بالفعل ورد الشبهات عنها، ثم إن هناك المباحث الكلامية التي قد تأثرت بالتفكير اليوناني وأسلوبه في معالجة شئون العقيدة(١).

فالتعامل مع مثل هذا التراث هو وضعه في الأرفف العالية؛ بحيث لا ينشغل به إلا الجهابذة المتخصصون، وتقديم الفهم المبسط الذي يعتمد مقاصد الآيات القرآنية في تنزيه الله سبحانه، واعتماد ما ينبني عليه عمل نافع جاد.

## الضابط السادس: الانطلاق من داخل التراث لا من خارجه، وفي ضوء سياقه الحضاري

حاولت بعض الاتجاهات الفكرية مراجعة تراثنا الفكري، وذلك من خلال تطبيق المناهج الغربية المعاصرة على التراث متجاهلة خصوصية هذا التراث الفكرية والعقدية، وهذا يخالف المنهج؛ لأنها تحاكم تراثًا وفقًا لنسق معين وقواعد فكرية معينة، بأدوات ووسائل أخرى من خارج التراث، وهذا خطأ؛ لأن هذه المحاكمات وهذه المراجعات يجب أن تتم من داخل التراث نفسه ومن واقع مصطلحاته هو؛ فعلى سبيل المثال: لا يمكن أن أحاكم المنهج التجريبي الغربي وفق نمط ونماذج وقواعد ونسق تراثنا الإسلامي،

(١) ينظر: «التجديد في الفكر الإسلامي المعاصر»، (ص: ١٨٠).

**لكن من النصفة أن تكون محاكمات هذا المنهج وفقًا للتراث الغربي ونماذجه المعتمدة لديه والأصول التي اعتمد عليها، فإذا كان اعتماده على المختبر والتجربة وعمل الإحصاءات والاستقراء، ووضع الملاحظات، فإن عملي ونقدي لهذا النموذج سيكون بناءً على هذه القواعد و الأسس التي اعتمد عليها في بناء نموذجه(١).**

**فالمعروف أنه لا يمكن معايرة واقع حضاري بأصول ومقاييس غريبة عنه؛ •فمعايرة الحاضر الإسلامي بمرجعية الحضارة الغربية، والقبول والرفض، في ضوء معاييرها التي تنتج هذا الواقع، هو المشكلة، أو هي معادلة المسلم الصعبة اليوم، وما لم نحقق النقلة النوعية في المسألة الثقافية والمعرفية، ونستطيع إخضاع التراث في صيرورته التاريخية إلى مرجعيته وقيمه التي صدر عنها، ونستطيع أن نحدد مواطن وأسباب الانحراف، وندرك أدوات التقويم والتصويب، فسوف نكون عاجزين عن التعامل مع الحاضر وإبصار المستقبل؛ لأننا نكون أشبه بمن يتعامل مع آلة دون امتلاك دليل التشغيل الذي يضمن الحركة للآلة والإنتاج لوظيفتها، والتصليح لمعاودة الإنتاج في أثناء التوقف بسبب الأعطال"(٢).**

**والدعوة هنا إلى الانطلاق في الدرس المعرفي للتراث من داخله لا من خارجه، أي: دراسة هذا الفكر التراثي من داخله بألفاظه ومصطلحاته؛ وذلك لفهم عوامل التكوين والنشأة، ودراسة مظاهر وجوانب الإبداع**

---

(١) ينظر: «مقدمة في إسلامية المعرفة» أ.د: طه العلواني، (ص: ١٥٥)، الناشر: دار الهادي للطباعة والنشر – بيروت/ لبنان، ط: الأولى: ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.

(٢) «الوراثة الحضارية»، (ص: ١٤٥).

والإيجابية وعوامل السكون والجمود والسلبيات، والمواقف التى واجهها هذا التراث.

## الضابط السابع: التفرقة بين المناهج التي أنتجت التراث لكل علم على حدة

يجمع معظم الباحثين في التراث الإسلامي على أنهم ينظرون إلى التراث في كليته وفي صورته المصمتة، التي لا تُميّز بين تراث مجال معرفي معين، وتراث مجالات معرفية أخرى، أو بين فئات من التراث تتفاوت في مرجعيتها وقيمها المعاصرة، مع العلم بأن وضع التراث في سلّة واحدة والحكم عليه حكم واحد هو خَلَل ظاهر؛ إذ تختلف مناهج التراث اليوم من علم إلى آخر؛ ففي بعض علوم التراث قيم معيارية ومناهج أنتجت التراث، وفي بعضها خبرات بشرية متطورة.

•ولا بد أن ننعم النظر في تنوع المناهج التي أنتجت التراث؛ فالتراث الفقهي مثلًا كان يشكل الحجم الأكبر من مجمل التراث، وكثير من العلوم المعروفة اليوم كانت جزءًا من هذا التراث الفقهي، ولا سيما ما يختص بفقه المعاملات الاقتصادية، وفقه الحياة الاجتماعية، فكان المنهج الفقهي الأكثر حضورًا في هذا التراث، لكن النظر في المناهج التي ربما كانت أقل استعمالًا أمر مهم كذلك؛ فالمنهج العقلي الذي اعتمده علماء الكلام والفلاسفة، ومنهج التزكية النفسية والقلبية الذي اعتمده المتصوفة، ومنهج التحليل الاجتماعي والحضاري والمنهج المقارن الذي اعتمده بعض المؤرخين"[1].

---

([1]) «التراث التربوي الإسلامي»، (١/ ٤٥٨).

وكل هذه المناهج وغيرها أنتجت تراثًا يختلف اختلافا كليًّا وجزئيًّا عن غيره؛ فكل علم له منهجه الذي اعتمد عليه في إنتاجه؛ ولذلك لا يمكن غض الطرف عن هذه المناهج، فهي أصل في تكوين هذا التراث.

## الضابط الثامن: التراث الإسلامي تراث بشري قابل للنقد المنهجي

التراث الإسلامي هو إنجاز المجتمعات الإسلامية في مجالات مختلفة حسب ما عبّر عنه العلماء الذين كتبوا مادة ذلك التراث، والاجتهاد البشري غير معصوم، بل هو يصيب ويخطئ، ويقترب من المقاصد التي جاء الدين لتحقيقها بدرجات متفاوتة، وقد يفشل في هذا الاقتراب؛ ولذلك لا بد من ممارسة النقد المنهجي والتنبيه بالخطإ أو النقد على بعض مدونات التراث و كذلك على بعض كاتبيها، أو التنبيه على خطإ بعض الممارسات التراثية.

كذلك الحكم على التراث بالصواب والخطإ في ضوء الأحوال والعوائد التي كانت سائدة[1]؛ فعلى سبيل المثال: وافَقَ ابن خلدون القاضي ابن عربي فيما ذهب إليه في مسألة ترتيب موضوعات التعليم، لكنه استدرك قائلًا: "وهو لعمري مذهب حسن إلَّا أنّ العوائد لا تساعد عليه، وهي أملك بالأحوال ووجه ما اختصّت به العوائد"[2].

---

([1]) ينظر: «المرجع السابق»، (١/ ٤٧٦).

([2]) «ديوان المبتدإ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر»، (ص: ٧٤٢).

**وبناءً على ذلك •لا يفترض أن نُسَلِّم بكل التراث الذي وصل إلينا، وما وصل إلينا ليس بالضرورة هو كل ما لدينا، أو أفضل ما لدينا»[1]، فقد تسمح الخبرة لدي الباحث في التراث الإسلامي بنقد سائغ لبعض الموروثات التي سلمنا بها بحكم قدمها وبحكم العادة والألفة، لكن عنصر النقد المنهجي يظل ضابطًا محوريًّا به يتبين من خلاله ما كان موروثًا ولا يزال سائغًا وما هو خلاف ذلك.**

**فالعقلية التراثية التي كرست حالة الجمود والسكون والرهبة أمام النص التراثي هي نفسها التي ترسخ للتقليد والتبعية ولا تشجع على النقد المنهجي، •فهذه العقلية هي التي حبست الإمام محمد بن جرير الطبري في بيته ثلاثة أيام وبقي مسجونًا في بيته؛ وذلك لأنه أصدر كتابًا سماه (اختلاف الفقهاء) اعتبر فيه الإمام أحمد بن حنبل- رضي الله عنه- محدثًا وليس فقيهًا، وهذا الرأي تحول إلى أزمة خطيرة كادت أن يموت بسببها الإمام الطبري وسجن في بيته، إلى أن تمكن تلاميذه من إخراجه، ولما توفي دفن بداره ليلًا؛ لأن العامة اجتمعت ومنعت من دفنه نهارًا»[2].**

**ومن جهة أخرى، •هناك عاطفة شديدة تربطنا بالتراث، ودواعٍ تحرضنا في بعض الحالات لأن نكون في موقف الدفاع عنه وحمايته أمام الذين يقللون من أهميته وقيمته، أو من الذين يمارسون القطيعة معه والتعامل الرافض له، أو حين يُصور لنا التراث على أنه ذاكرتنا وجذورنا وهويتنا**

---

(1) «من التراث إلى الاجتهاد»، (ص: ٢٥٩).

(2) «اختلاف الفقهاء» تأليف: أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، (ص: ١٠)، الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

وتاريخنا وشخصيتنا، وهذا بالتأكيد يفرض أنماطًا من العلاقة لا تستحضر معها النقد والمنظور النقدي"[1].

لهذه الاعتبارات وأضرابها، كان من الضروري أن يحكم نظرتنا للتراث «التعامل النقدي» الفاحص المتحرر من ضغط التقليد والنوازع الذاتية والعصبيات الاجتماعية أو القومية.

**الضابط التاسع: تجاوز الانغلاق والقطيعة والإقصاء لتراث الآخر**

أعني هنا بتجاوز الانغلاق الانفتاح على مجموع التراث الإسلامي؛ فليس من الإنصاف الانغلاق على تراث مذهب بعينه؛ فهذا •يعزز حالة الفرقة والطائفية أو التعصب المذهبي؛ فكل طائفة تشتغل بتراثها، وأصحاب كل مذهب لا يتوجهون إلا للتراث الذي يتصل بهم إلى أن ضاقت الدائرة، وأصبح الاهتمام ينصب على تراث الجماعة أو الفئة أو العالم أو المرجع، وليس هذا هو الإشكال، وإنما الإشكال ما يصاحب هذه الحالة من قطيعة معرفية مع تراث الآخر وتغييبه وإقصائه، أو الانتقاص منه"[2].

•قد تكون بعض الكتابات اتسمت بالنظرة المذهبية الانتقائية، الأمر الذى لم يُمكّن من استيعاب جميع التراث والتعرف على مختلف اتجاهاته؛ مما يكسب العقل الإحاطة، ويمنحه المرونة الكافية للترجيح والمقارنة والمقابلة والمقاربة مع الواقع واستصحاب الرؤية الشمولية لوضع الواقع في إطاره

(1) «من التراث إلى الاجتهاد»، (ص: ٢٥٩).

(2) «من التراث إلى الاجتهاد»، (ص: ٢٥٧).

الصحيح، والإفادة من نظرات واجتهادات الماضي في تحليله وإدراك أبعاده وحسن تنزيل الإسلام وتقويم مسيرة المجتمع به"[1].

•والتعامل الأمثل مع هذه الحالة يكون بالانفتاح على مجموع التراث الإسلامي والتواصل مع كل تنوعاته وتعدداياته، وليس الانحياز أو التعامل الفِرَقِي والمذهبي أو العرقي والقومي، وتجاوز الانغلاق والقطيعة والإقصاء لتراث الآخر؛ فلا ينبغي أن يفرض التراث سلطته علينا، بل ينبغي أن نفرض عليه سلطة العلم والمنطق العلمي والبحث عن الحقيقة، بعيدًا عن التحيز بكافة صوره وأشكاله، ويفترض أن شرط الانفتاح والتواصل يتأكد وتزداد قيمته بصورة خاصة للتراث الذي تعرض للإهمال أو التشويه أو الإقصاء"[2].

إن القراءة الأحادية والمذهبية، أو ذات البعد الواحد تؤدي إلى الانغلاق حول أنموذج معين، والتوهم بأنه يمثل الحقيقة المطلقة، الصالحة لكل زمان ومكان، الأمر الذي يقود إلى التبعية له وعدم القدرة على إبصار غيره

## الضابط العاشر: الحيادية في قراءة التراث أو عدم الدخول على التراث بأحكام مسبقة

•تأتي ضرورة إحكام النظر فيه وإحسان قراءته وتفسيره وتحليله والاستنباط منه، وأول ما يضمن ذلك ويكفله أن يبذل الناظر فيه جهده لإدراك مضمونه، كما هو مراد عند أصحابه يوم صدر عنهم، متجردًا في

(1) «الوراثة الحضارية»، (ص: ١٤٠).

(2) «من التراث إلى الاجتهاد»، (ص: ٢٥٩).

**ذلك من الإقبال عليه بأحكام سابقة ومواقف منه جاهزة، فإن ذلك يفسد النظر فيه، فيفسد الاستنباط والاستخلاص بفساد طبيعة النظر»[1].**

**فمن أراد سلوك سبيل الحق والنصفة أن لا يدخل على التراث بأحكام مسبقة ويريد أن يستدل عليها من التراث؛ فمثل هذا السلوك قد يضطره في كثير من الأحيان أن يلوي أعناق النصوص؛ لينتصر لفكرته، أو يؤيد مذهبه، أو يقوي اتجاهه، ومن كان هذا مسلكه، فإنه نكس الأمر على رأسه، وأتى البيت من غير بابه؛ إذ الواجب عليه أن يدخل خالي الذهن متجردًا لا أن يبني قناعات خارج التراث ثم يأتي يبحث عن شواهد وأدلة لهذه القناعات.**

**ومنشأ ذلك: إما الجهل، أو الهوى، فإن ذلك يقطع على الإنسان طريق الفهم، ويجعله يصدر أحكاما مسبقة بناءً على تصورات خاضعة لهواه أو لمذهبه، ولا يتيح لنفسه الفرصة للتعرف على النص من خلال قراءته وفهمه كما أراده كاتبه، ومن الأمثلة على ذلك:**

**ما ذكره الإمام الطاهر ابن عاشور- رحمه الله- حيث قال: •إن من يكون له ميل إلى نزعة أو مذهب أو نحلة فيتأول القرآن على وفق رأيه ويصرفه عن المراد ويرغمه على تحمله ما لا يساعد عليه المعنى المتعارف، فَيُجْري شهادة القرآن لتقرير رأيه ويمنعه عن فهم القرآن حق فهمه ما قَيَّدَ عقله من التعصب، عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غَيْرُ مذهبه، حتى إن لَمَعَ لَهُ بَارِقُ حَقٍّ وبدا له معنى يُبَايِنُ مَذْهَبَهُ حمل عليه شيطان التعصب حملة، وقال كيف يخطر هذا ببالك، وهو خلاف**

(١) ينظر: بحث محكم: «أزمة المنهج في فهم التراث»، (ص: ٢٠).

**معتقدك؟ كمن يعتقد من الاستواء على العرش التمكن والاستقرار، فإن خطر له أن معنى قوله تعالى: ﴿الْقُدُّوسُ﴾[1] أنه المنزه عن كل صفات المحدثات، حجبه تقليده عن أن يتقرر ذلك في نفسه، ولو تقرر لتوصل فهمه فيه إلى كشف معنى ثان أو ثالث، لكنه يسارع إلى دفع ذلك عن خاطره لمناقضته مذهبه، وجمود الطبع على الظاهر مانع من التوصل لِلْغَوْرِ»**[2].

**من خلال ما سبق، يتأكد لنا أن من أهم الأسباب التي تؤدي إلى تلك القراءة الخاطئة: التعصب للمذهب أو الفرقة أو النِّحْلة، أو التشبع والاطمئنان إلى تلك الآراء التي يتبناها واعتقاد صحتها، أو التعصب لشخص واعتقاد أن الحق معه دائمًا، كل ذلك مؤدٍّ إلى قراءة غير حيادية وغير منصفة للتراث؛ ولذلك لا بد من القراءة الحيادية للتراث وعدم الدخول عليه بأحكام مسبقة.**

---

(١) ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. [الحشر: ٢٣].

(٢) «التحرير والتنوير»، (١/ ٣١).

## المبحث الثامن: شهادات بعض المفكرين المتغربين للتراث الإسلامي

لقد كان التراث الإسلامي، ولا يزال، الظهير والنصير للوجود الإسلامي الأصيل، وقد كان علماء العرب ومفكروهم منارات مضيئة شامخة في إنشاء العلوم، وإقامة صروح المدنية والحضارة في الوقت الذي كان الغرب يتخبط في دياجير الجهل وظلام التخلف، ومع ذلك نجد بعض المفكرين الذين كانوا يتهكمون على التراث ويصفونه بأنه سبب التخلف والرجعية، يشهدون له بعد أوبة فكرية ورجعة، ولقد أتت هذه الشهادات كذلك من علماء لا يزالون على توجههم، لكنهم أنصفوا التراث وأعطوه بعض ما يستحقه، ومن هذه الشهادات:

### شهادة زكي نجيب محمود للتراث

يقول: "بدأت بتعصب شديد لإجابة تقول أنه لا أمل في حياة فكرية معاصرة إلا إذا بترنا التراث بترًا، وعشنا مع من يعيشون في عصرنا علمًا وحضارة ووجهة نظر إلى الإنسان والعالم، بل إني تمنيت عندئذٍ أن نأكل كما يأكلون، ونجدّ ما يجدّون، ونلعب كما يلعبون، ونكتب من اليسار إلى اليمين كما يكتبون، على ظن مني آنئذ أن الحضارة وحدة لا تتجزأ؛ فإما أن نقبلها من أصحابها- وأصحابها اليوم هم أبناء أوروبا وأمريكا بلا نزاع-، وإما أن نرفضها وليس في الأمر خيار؛ بحيث ننتقي جانبًا ونترك جانبًا، كما دعا إلى ذلك الداعون إلى الاعتدال، بدأت بتعصب شديد لهذه الإجابة السهلة، وربما كان دافعي الخبيئ إليها هو إلمامي بشيء من

**ثقافة أوروبا وأمريكا وجهلي بالتراث العربي جهلًا كاد أن يكون تامًّا، والناس- كما قيل بحق- أعداء ما جهلوا"[1].**

## شهادة واعتراف أ.د: جابر عصفور

**يعترف أ.د: جابر عصفور في مقدمة كتابه "قراءة التراث النقدي" بأنه "لا توجد قراءة بريئة، أو محايدة للتراث، ذلك لأننا عندما نقرأ التراث، ننطلق من مواقف فكرية محددة، لا سبيل إلى تجاهلها، ونفتش في التراث عن عناصر للقيمة الموجبة أو السالبة بالمعنى الذي يتحدد إطاره المرجعي بالمواقف الفكرية التي ننطلق منها"[2].**

## شهادة د: حسين مروة

**يقول: "إننا نستفيد في حاضرنا من التعامل مع التراث بالكشف على أن الحاضر له تاريخ عريق أنتج حضارة، وأننا نحن في هذا الحاضر الورثة الحقيقيون لهذا النتاج الحضاري، وأن هذا التراث هو نتاج تطور اجتماعي اقتصادي سياسي معرفي، بذلك نستفيد من نضالنا الحاضر أن تطور الماضي يفسر تطور الحاضر"[3].**

---

(1) «تجديد الفكر العربي» د: زكي نجيب محمود، (ص: ١٣)، الناشر: دار الشروق- القاهرة، ط: التاسعة ١٩٩٣م.

(٢) «قراءة التراث النقدي» د: جابر عصفور، (ص: ٩)، الناشر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية- القاهرة، ط: الأولى ١٩٩٤م.

(3) «النص الديني والتراث الإسلامي: قراءة نقدية»، (ص: ٣٦٣).

## شهادة المستشرق الألماني آدم متز

**قال: "لا يعرف التاريخ أمة اهتمت باقتناء الكتب والاعتزاز بها كما فعل المسلمون في عصور نهضتهم وازدهارهم؛ فقد كان في كل بيت مكتبة، وكانت الأسرة تتباهى بما لديها من مخطوطات نادرة وثمينة، وكان بعض التجار يسافرون إلى أقصى بقاع الأرض لكي يحصلوا على نسخة من مخطوط نادر أو حديث"[1] .**

## شهادة المستشرق الفرنسي جوستاف لوبون

**قال: "كلما أمعنا في دراسة حضارة العرب والمسلمين وكتبهم العلمية واختراعاتهم وفنونهم، ظهرت لنا حقائق جديدة وآفاق واسعة، ولسرعان ما رأيتَهم أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وإن جامعات الغرب لم تعرف لها مدة خمسة قرون موردًا علميًّا سوى مؤلفاتهم، وإنهم هم الذين مدَّنُوا أوروبا مادة وعقلًا وأخلاقًا، وإن التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير، وأنه لم يَفُقْهم قوم في الابتداع الفني" [2].**

---

(1) «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري» تأليف: آدم متز، (٢/ ٣٢٨)، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، تقديم: مصطفى لبيب عبد الغنى، ط: مكتبة الأسرة ٢٠١٣م.

(2) «حضارة العرب» غوستاف لوبون، (ص: ٢٦)، ترجمة: عادل زعيتر. ط: الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٠م.

## شهادة المستشرق جورج سارتون

**يقول جورج ألفريد ليون سارتون، في كتابه: «مقدمة في تاريخ العلم» متحدثًا عن دور علماء المسلمين في الفكر الانساني: "إن الجانب الأكبر من مهام الفكر الإنساني اضطلع به المسلمون؛ فالفارابي أعظم الفلاسفة، والمسعودي أعظم الجغرافيين، والطبري أعظم المؤرخين"[1].**

**وقال أيضًا: "إن علماء الإسلام والعرب عباقرة القرون الوسطى، وتراثهم من أعظم مآثر الإنسانية. إن الحضارة العربية الإسلامية كان لا بد من قيامها. وقد قام العرب بدورهم في تقدم الفكر وتطوره بأقصى حماسة وفهم. وهم لم يكونوا مجرد ناقلين كما قال بعض المؤرخين بل إن في نقلهم روحا وحياة؛ فبعد أن اطلع العرب على ما أنتجته قرائح القدماء في سائر ميادين المعرفة نقحوه وشرحوه وأضافوا إليه إضافات مهمة أساسية تدل على الفهم الصحيح وقوة الابتكار"[2].**

**من هذه الشهادات وأضرابها نجد أن عين الإنصاف ترى أن التراث الإسلامي عامل نهضة وتقدم وليس كما يدعي البعض أنه معوق للنهضة، بل التراث في حقيقته داع إلى النهضة والتقدم وإلا ما تقدم الأسلاف، ويكفينا أن نعرف أن الحملة الفرنسية لما دخلت إلى مصر لم**

---

(1) مقدمة: «تاريخ العلم: العلم القديم في العصر الذهبي اليوناني» جورج سارتون، (1/ و)، ترجمة د: محمد عبد الهادي أبي ريدة وآخرين، ط: المركز القومي للترجمة، دون.

(2) «المرجع السابق»، نفسه.

تخرج كما دخلت، وإنما كانت حريصة على أخذ المخطوطات العربية، كما أن مكتبات أوروبا ومتاحفها زاخرة بتراثنا العربي والإسلامي.

## الخاتمة

الحمد لله الذي أتم عليَّ نعمة الانتهاء من هذا البحث، أحمده- عز وجل- وأسأله أن يستعملنا ولا يستبدلنا، وبعد..

فعلى مدار رحلتي مع البحث، كان من أهم **النتائج** التي توصلت إليها ما يأتي:

**أولًا**: إن التراث الإسلامي ما زال يحافظ على قيمته وفاعليته وحضوره في حياتنا الفكرية المعاصرة، وفي تشكيل مفاهيمنا وأفكارنا وفي تكوين خطاباتنا ومنظوماتنا الفكرية.

**ثانيًا**: إن التراث الإسلامي يمثل أحد مكونات شخصية الأمة وهويتها ووجدانها وذاكرتها وحتى عقليتها.

ثالثًا: إن النهوض والتقدم لا يتحقق في أي أمة من الأمم إلا من خلال الانتظام في تراثها والتواصل معه، لا بالانقطاع عنه؛ فالأمم لا تتطور وتتقدم إلا بعجلة من داخلها، لا بعجلة من خارجها، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم؛ فالغرب لم يكتشف طريقه إلى التقدم إلا بعد أن اكتشف طريقه إلى تراثه وانتظم في منظومته.

رابعًا: التراث الإسلامي ليس مقدسًا ولا مدنسًا، بل هو منتج بشري قابل للنقد المنهجي.

خامسًا: لا يمكن لأي شخص لم تتوفر له ضوابط التعامل مع التراث، أن يتهجم على التراث ويصفه ويصمه بما ليس فيه، فليس كل أحد صالحًا للتعامل مع التراث إلا من أتقن دهاليز العلم وأتقن فنونه ودروبه.

**التوصيات**:

**أولًا: أوصي الباحثين وطلبة العلم باستخراج مناهج ضابطة للتعامل مع التراث؛ بحيث تكون هذه المناهج خدمة للعلم أولًا، ورادعًا لكل من تسول له نفسه التجرؤ على التراث دون علم ثانيًا.**

**ثانيًا: على الباحثين في حقول التراث الإسلامي إعمال حاسة النقد المنهجي؛ فالنقد المنهجي صنعة إسلامية بالأساس، حتى يكون النقد بأيدينا لا بأيدي غيرنا.**

# ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- «الوراثة الحضارية» أ.د: عمر عبيد حسنة، الناشر: المكتب الإسلامي- بيروت، ط: الأولى ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

٢- «نقد التراث» د: عبد الإله بلقزيز، الناشر: مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط: الأولى: نوفمبر ٢٠١٤م.

٣- «نظرية التراث.. ودراسات عربية وإسلامية أخرى» د: فهمي جدعان، ط: دار الشروق- عمان- الأردن، ط: الأولى ١٩٨٥م.

٤- «النص الديني والتراث الإسلامي.. قراءة نقدية..» د: أحميدة النيفر، ط: دار الهادي -بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٥- «نحو تصور حضاري للمسألة المصطلحية» تأليف: الشاهد البوشيخي، الناشر: مطبعة انفوبرانت، فاس، ط: الأولى ٢٠٠٢م.

٦- «موضح أوهام الجمع والتفريق» تأليف: أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي، تحقيق: د. عبد المعطي أمين قلعجي، الناشر: دار المعرفة – بيروت، ط: الأولى، ١٤٠٧هـ.

٧- «الموسوعة الفقهية الكويتية» صادرة عن: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – الكويت، ط: الثانية، دارالسلاسل – الكويت، ١٤٠٤ – ١٤٢٧ هـ.

٨- «المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية» مجموعة من المؤلفين،

ط: دار توبقال للنشر، الدار البيضاء- المغرب، ط: الثالثة ٢٠٠١م.

٩- «منهج قراءة التراث الإسلامي بين تأصيل العالمين وانتحال المبطلين» تأليف: الحسن العلمي، الناشر: دار الكلمة للنشر والتوزيع- المنصورة، ط: الأولى: ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م، بتصرف.

١٠- «مناهج قراءات التراث في الفكر النهضي العربي؛ إشكالات ونماذج» تأليف د: عبد العزيز إنميرات، الناشر: مركز التأصيل للدراسات والبحوث، المملكة العربية السعوية – جدة، ط: الأولى: ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م.

١١- «من التراث إلى الاجتهاد»، تأليف د: زكي الميلاد، ط: المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان، ط: الأولى ٢٠٠٤م.

١٢- «مقدمة في إسلامية المعرفة» أ.د: طه العلواني، الناشر: دار الهادي للطباعة والنشر- بيروت/ لبنان، ط: الأولى: ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

١٣- «مقاربات في قراءة التراث» د: عبد المجيد النجار، الناشر: الدار المالكية – تونس، ط: الأولى ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

١٤- «مطالعات في الدين والإسلام والعصر» د: محمد خاتمي، تقديم: على محمد أبطحي، ط: دار الجديد- بيروت -لبنان، ط: الأولى ١٩٩٨م.

١٥- «مستقبل الثقافة في مصر» د: طه حسين، دراسة وتقديم د: أحمد زكريا الشلق، الناشر: الهيشة العامة المصرية للكتاب ٢٠١٣م.

١٦- «المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري» سلسلة كتاب الأمة،

تأليف أ.د: محسن عبد الحميد، رجب ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

١٧- «المدخل إلى دراسة المذاهب الفقهية» د: علي جمعه، الناشر: دار السلام للطباعة والنشر، ط: الرابعة ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

١٨- «المحكم والمحيط الأعظم» تأليف: أبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م.

١٩- «المثقفون العرب والتراث.. التحليل النفسي لعصاب جماعي» جورج طرابيشي، الناشر: رياض الريس للكتب والنشر، ط: الأولى شباط- فبراير ١٩٩١م.

٢٠- لسان العرب» تأليف: جمال الدين ابن منظور، : دار صادر – بيروت، ط: الثالثة - ١٤١٤هـ.

٢١- «الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل» تأليف: أبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، ط: الثالثة - ١٤٠٧ هـ.

٢٢- «قضايا إشكالية في الفكر الإسلامي المعاصر» إعداد د: حسني محمد نصر، د: صلاح إسماعيل عبد الحق، وآخرين، تحرير د: نصر محمد عارف، ط: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٤١٨ هـ- ١٩٩٧م.

**هذا بخلاف بعض المصادر الأخرى الموجودة في ثنايا البحث لم أشأالإطالة بذكرها.**

# فهرست المحتويات


| الموضوع |
| --- |
| المقدمة |
| أهمية البحث وأسباب اختياره |
| أهداف البحث |
| مشكلة البحث وتساؤلاته |
| الدراسات السابقة |
| خطة البحث |
| **المبحث الأول: تعريف التراث ومفهومه** |
| مدخل في جدل المفهوم |
| المطلب الأول: مفهوم التراث في اللغة |
| المطلب الثاني: مفهوم التراث في الاصطلاح |
| المطلب الثالث: التراث في المفهوم القرآني |
| المطلب الرابع: التراث في المفهوم النبوي |

| |
|---|
| المطلب الخامس: الحقل الدلالي لمصطلح «تراث» في الفكر العربي والإسلامي |
| المطلب السادس: مصطلح التراث في الحضارة الغربية |
| **المبحث الثاني: التراث والوحي** |
| المطلب الأول: التيار القائل بضرورة فصل التراث عن الوحي |
| المطلب الثاني: التيار القائل بعدم فصل التراث عن الوحي |
| المطلب الثالث: الفرق بين الفكر الإسلامي (بوصفه تراثًا) والوحي الإلهي |
| **المبحث الثالث: العلاقة الجدلية بين التراث وغيره من المفاهيم التداخلية** |
| المطلب الأول: أهمية دراسة قضية التراث الإسلامي |
| المطلب الثاني: العلاقة بين التراث والمقدس (الدين) |
| المطلب الثالث: العلاقة بين التراث والتجديد |
| المطلب الرابع: العلاقة بين التراث والحضارة |
| المطلب الخامس: حدود الاستلهام والتجاوز في التراث الإسلامي |

| |
|---|
| **المبحث الرابع: خصائص التراث الإسلامي** |
| **المبحث الخامس: مناهج المتعاملين مع التراث الإسلام** |
| **المبحث السادس: معيقات مراجعة التراث وتجديده.** |
| **١-إضفاء طابع القداسة على التراث** |
| **٢- عدم وجود التشخيص والتحليل الدقيق** |
| **٣- ضعف مَلَكة صناعة نقد الآثار والأفكار وصياغتها** |
| **٤- ارتباط مفهوم المراجعة بالانحراف عن منهج الإسلام القويم** |
| **٥-الانبهار بتيار الحداثة والثورة على القديم** |
| **٦-افتراض الماضي خير من الحاضر** |
| **٧- المحافظة على مكانة العلماء** |
| **المبحث السابع: ضوابط التعامل مع التراث** |
| **الضابط الأول: التمكن من اللغة العربية** |
| **الضابط الثاني: توثيق التراث** |
| **الضابط الثالث: مبدأ التكامل المعرفي للتراث** |

| |
|---|
| الضابط الرابع: فهم التراث في ضوء سياقه وملابساته الزمانية والمكانية |
| الضابط الخامس: تنحية المسائل الخلافية التي لا ينبني عليها عمل |
| الضابط السادس: الانطلاق من داخل التراث لا من خارجه، وفي ضوء سياقه الحضاري |
| الضابط السابع: التفرقة بين المناهج التي أنتجت التراث لكل علم على حدة |
| الضابط الثامن: التراث الإسلامي تراث بشري قابل للنقد المنهجي |
| الضابط التاسع: تجاوز الانغلاق والقطيعة والإقصاء لتراث الآخر |
| الضابط العاشر: الحيادية في قراءة التراث أو عدم الدخول على التراث بأحكام مسبقة |
| المبحث الثامن: شهادات بعض المفكرين المتغربين للتراث الإسلامي |
| الخاتمة |

# القوة الناعمة في الإسلام

# دراسة تأصيلية


إعداد:

**دكتور / وليد نعيم عبد الرحمن عبد الخالق**

المدرس بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية

جامعة الأزهر كلية أصول الدين والدعوة

فرع الزقازيق

والأستاذ المساعد بقسم الدراسات الإسلامية المعاصرة

المعهد العالي للدعوة والاحتساب

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض